

قصة أديب

كيف كنت أنظر إلى الأدب من خمسين سنة. لا بد لي من أن أطوي هذه السنين الخمسين حتى أستطيع أن أقابل بين الأفق الضيق الذي كان يعيش فيه الأدب، وبين الأفق الرحيب الذي تقلب في أعطافه في خلال نصف قرن، ماذا كنا نفهم من الأدب في تلك الأيام البعيدة، إنني مضطر إلى الاعتراف بأن المدرسة التي نشأت فيها لم تخلق فيّ ميلاً إلى أدبنا، وإذا كنا قد أصبنا من هذا الأدب شيئاً يسيراً فإن هذا الشيء قد أفسد أذواقنا ولولا صديق في المدرسة تولى تقويم الذوق لما كان لي في الأدب كثير أو قليل، وعلى الرغم من هذا هل كنا نفهم الأدب على حقيقته، على الوجه الذي نفهمه اليوم.

لقد فتحنا أعيننا على دواوين طائفة من الشعراء، وعلى كتب فريق من الكتاب، ولكن ماذا كنا نفهم من شعر أولئك الشعراء وكتابة أولئك الكتاب، كنا نعنى بلفظ من الألفاظ أو بجملة من الجمل أو بتركيب من التراكيب، فكنا ندون هذا كله في دفاترنا ونتفاوض فيه في مجالسنا، فكان القالب الذي تفرغ فيه الفكرة شغلنا الشاغل، ولم ننظر إلى ما وراء القالب من الصور، ولا كنا

ندرك من محاسن الصور أو من مقابجها شيئاً، فكان يغلب علينا
التغني ببيت من الشعر فيه لفظ تستميل أذواقنا إليه أو التغني بجملة
من الجمل فيها نغم تنغش مسامعنا إليه، كنا ننظر إلى الظاهر ولا
نهتم بالباطن، وإذا قابلنا بين هذه النظرة إلى الأدب وبين نظرتنا
إلى الحياة بأجمعها في ذلك العصر وجدنا أن التناسب مستحکم بين
النظرتين، كانت حياتنا بسيطة في مجامع أوضاعها لأن العصر الذي
عشنا فيه كانت البساطة غالبية عليه، فمشاكل السياسة لم تنصرف
إليها إلا فئة قليلة من الناس، ومشاكل العالم لم يعن بها إلا نفر قليل
من الخلق، والعلم كان ضيق الآفاق فلم يتحدث الناس في مجالسهم
بالصواريخ وإرسال الأقمار؛ كانت أسرار الفضاء مغلقة الأبواب
والمذاهب الاجتماعية لم يكن لها صدى في أحاديثنا فكنا لا نعرف
شيئاً عن الاشتراكية أو الشيوعية أو التقدمية ومذهب أهل الرجعة،
والمرأة كانت قابضة في بيتها، لم تزاحم الرجل في الحياة العامة، ولم
تخلق له هذه المشكلة التي قد نسميها بعد قليل من السنين:

مشكلة مطالبة الرجل بحقوقه أقول هذا بالنسبة إلينا معاشر
الطلاب الذين خرجنا من مدارسنا في أواخر سنة ١٩١٣ ولا أقول
هذا القول بالنسبة إلى جماعة كانوا يعنون بالبحث عن مشاكل
السياسة والاجتماع وما شاكلهما لم أشعر قبل خمسين سنة بأني
أعيش في عالم متحرك يجرفه تيار لا يستطيع أن يقف في وجهه
فكأنني كنت أو من بثبات الحياة على نحو أولئك المهندسين الذين

بنوا هياكل المصريين والاغريق دون أن يفطنوا إلى كروار الأيام، كان شعورهم بثبات الحياة شديداً، فلم تتغير شروط الحياة في عصورهم بسرعة تمكنهم من الإحساس بالإختلافات التي تقع من سنة إلى سنة ومن بطن إلى بطن، من هذه الناحية نجد أن القرن التاسع عشر أقوى فطنة إلى هذا التغير فقد كثرت الاختراعات فيه وفي العصر الذي نعيش فيه، فكل شيء في الحياة قد تغير وانقلب، وقد تبعت انقلابات المادة انقلابات ثانية في آفاق الاجتماع والاقتصاد فالجتماع في يومنا هذا يعيد النظر في بنيانه على أسس جديدة، إن طائفة من الأفكار التي كانت تدخل في مذاهب الفلاسفة وحدهم أخذت تدخل في أذهان الناس عامة فقد انحدرت آفاقها العلمية إلى آفاق أقرب، والفن والأدب لا يسعها تجاهل هذه الأفكار الجديدة والمذاهب الحديثة، ومن هذه الأفكار والمذاهب فكرة التقدم ومذهب التطور فقد كان روح الابتداء والاختراع من خصائص العلماء وحدهم أما اليوم فإن الكتاب يهتمون بالابتداء والاختراع في كتاباتهم على نحو العلماء.

كل هذا كنت أجهله قبل خمسين سنة، كانت حياتنا بسيطة والتماثل بين أدبنا وبين حياتنا كان وثيق الأواصر قدر نظرنا إلى ظواهر الحياة كانت نظرنا إلى ظواهر الأدب، كنا ننظر في الأدب إلى العرض لا إلى الجوهر، إلى الكأس لا إلى ما ملئت به هذه الكأس، وما أشد الفرق بين النظرتين، نظرة إلى سطوح الأمور

ونظرة إلى الأعماق، ومن سطوح الأمور الإفراط في الإهتمام
بالمآكل والمشارب والملابس، الإفراط في الاهتمام بمسرات الحياة،
والإهمال لمساكلها والتنقيب عن أسرارها وغاياتها ومذاهبها،
فكما شغلنا ظواهر الحياة عن بواطنهما فكذلك شغلنا ألوان
الصورة في الأدب عن جوهر الصورة.

ولكن هل طالت نظرتنا إلى الحياة وإلى الأدب على هذا الشكل،
لقد ودعنا سنة ١٩١٣ واستقبلنا الحرب الكبرى الأولى ثم وضعت
الحرب أوزارها فاستقبلنا عهداً جديداً بالنسبة إلينا معاشر الشباب،
استقبلنا دولة استفاضت في أفيائها ألفاظ الحرية والسيادة
والاستقلال، فوجدنا أن هذه الألفاظ تدل على معان جديدة
أخذت تدخل أذهاننا ولم يكن لنا بها عهد من قبل، وتبين أن هذه
المعاني قد خرجت عن البساطة فكانت تستلزم الجهد الجاهد
والنضال الشديد وربما صحب هذا الجهد وهذا النضال شيء من
سفك الدم، فالتفتنا حينئذ إلى أدبنا لنعبر عن هذه الحياة الجديدة
التي واجهناها فرأينا أن العناية بالألفاظ وحدها لا تقوم بما نريد.
فأخذنا نبحث عن الأفكار، أخذنا نبحث عن الصورة نفسها فضلاً
عن ألوانها أو صيغها أو قوالبها، فخرج حينئذ أدبنا عن بساطته
خروج حياتنا نفسها عن هذه البساطة ودخل في أفق جديد
فاستحكم الانسجام بين هذه الحياة الجديدة وبين هذا الأدب
الجديد الذي استفاض في صحفنا في صورة المقال، فالحياة اشتدت

أضاحيها واستلزمت هذه الشدة قوالب شديدة فكان المقال رمز الحياة الجديدة رمز شدتها وجهدها ونضالها.

هذه مرحلة ثانية من مراحل حياتي الأدبية رأيت فيها تشابك الأدب والحياة فالأدب يصدر عن المجتمع والمجتمع يصدر عن الأدب، فهما متصلان لا يكاد الواحد ينفصل عن الآخر.

ولكن لماذا مارست المقال، ولم أمارس القصة، و فكثيراً ما سألوني هذا السؤال.

إن العصر الذي فتحت عيني عليه وأوله سنة ١٩١٨ أي أواخر الحرب الكبرى الأولى كان عصر نضال، لقد أخذ العرب على الحلفاء عهداً وموآثيق أن يعترفوا لهم باستقلال بلادهم بعد الحرب فلما انقضت الحرب نقض الحلفاء عهدهم وموآثيقهم ولماذا لم ينقضوها وقد انتفعوا بثورة العرب الكبرى في خلال الحرب فلم يبق لهم انتفاع بهم بعد الحرب، لقد عصروا البرتقالة وطرحوا قشرها، فكان على رجال الفكر والأدب في بلاد العرب أن يجاهدوا بأقلامهم في سبيل حرية البلاد وسيادتها واستقلالها ولا ريب في أن المقال كان أبسط الأنواع الأدبية فهو يدخل القلوب دون كثير من أعمال الرواية فليس فيه تحليل لعاطفة أو لفكرة أو لوضع المجتمع وإنما يواجه الفكرة والعاطفة مواجهة فلا يصعب على الأذهان أن تدرك أسراره لأول وهلة، كان همّ المقال في بعض الأحيان استشارة العامة والخاصة حتى تحذر الغرب وغوائلها وكان

همّ في بعض الأوقات التهويش حتى يستفحل في القلوب بغض الرجال الذين مدوا أيديهم إلى الدولة المنتدبة وكرهيتهم كما كان همه في بعض الأحوال غرس الأفكار الوطنية والقومية وإذا أردت أن أتبسط في غايات المقال طال بي التبسط وقد استطيع أن أخص هذه الغايات في أن المقال كان يواجه الحياة الواقعة مواجهة بسيطة لا شيء فيها من زخارف الفن أو من دقائق التحليل أو الوصف وما شابه، حسبه أن يكون البيان فيه واضحاً قوياً وحسبه أن تكون الفكرة فيه ظاهرة حتى يعمل عمله في القلوب.

فالقصة في مثل هذه الحالة التي وصفتها وأوجزت في وصفها لم يكن لها أثر والكاتب الذي انصرف إلى الرواية مع اعتناؤه بالمقال في جريدته إنما هو معروف الأرنأؤوط صاحب رواية سيد قريش وأخواتها من الروايات التي خلدت أعظم رجال التاريخ، كان المؤلف رحمه الله مرح الظاهر والباطن فانعكس مرحة على بيانه فطفحت رواياته بالصور الشعرية فقد كان يقرأ كثيراً كتب شاتوبريان ولوثي وشعر فيني وموسه.

فإذا كنت لم أمارس القصة فالذنب ليس بذنبي وإنما هو ذنب العصر الذي عشت فيه وذنوب البيئة التي نأت فيها ولما تقدم هذا العصر واشتدت مشاكله وكثرت مخالطتنا لأدب الافرنجة نشأت القصة فلم يبق العصر عصر جهاد وحده إنما أصبح عصر مشاكل اجتماعية لا غنى عن حلها.

كان بعض الأئمة في أول أيامي وفي العصر الذي سبقني ينفرون عن الرواية والقصة وحسبي أن اذكر منهم الشدياق وكرد علي. أما الأول فقد كان يرى في الرواية سفسفة واتياناً بالغت وأما الثاني فقد كان يرى في القصة محض الاختلاق.

لا شك في أن هذين الإمامين لم يألفا الرواية والقصة ولم ينظرا إليهما من زاوية هذين النوعين الأدبيين فالرواية ليس من الضروري أن تكون سفسفة أنها قد اتسعت للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف كما اتسعت للطبيعة وواقع الحياة والمثل الأعلى فالرواية إنما هي دراسة فيها صراع الأخلاق في بيئة واحدة أو في بيئات.

كما أن القصة ليس من الضروري أن تكون اختلاقاً فد تستنبط حوادثها من الحياة فيجهد القاص في التفتيش عن أصول هذه الحوادث وفي تصور عواقبها ثم في التفتيش عن تأثيرها في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع وقد تكون موضوعات القصة قانوناً من القوانين أو عادة من العادات أو حالة من الحالات فيجهد القاص في تصور ما يمكن أن يعمل هذا القانون وهذه العادة وهذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً.

وعلى هذا فقد اختلفت موضوعات القصة والرواية عن موضوعات المقال، لقد انتقلت الحياة من وجه إلى وجه فانتقلت الأفكار من وجه إلى وجه فإذا كان المقال صور الحياة البسيطة فقد

أصبحت القصة والرواية صورة الحياة المعقدة في أكثر نواحيها ولا بد في مثل هذا التعقيد من حل ووصف ولا بد في هذا الحل والوصف من أثر الفن وهنا تظهر مهارة صاحب القصة والرواية.

إنني لا أريد التعرض للقصة والرواية في بلادنا فهذا خارج عن موضوعي، إنني أروي قصتي الأدبية وأصف الأطوار التي تقلب فيها الأدب، إلا أنني أغتتم الفرصة للكلام عن ناحية واحدة من القصة بحسب ما شعرت به وأنا أطلع بعض القصص.

لقد قرأت قصة من أربعين سنة عنوانها، طير القمر، أرسلها صاحبها إلى مجلة de Annales في باريز ولم يذكر اسمه ولم يوسط أحداً في نشرها وقد أعجبت هذه القصة أصحاب المجلة بلفظها ورقتها فنشروها بعد أن مهدوا لها بمقدمة وجيزة.

ما أظن أن أحداً يطالبني بتلخيصها لأن روعتها قد تذهب بهذا التلخيص إلا أنه لا مناص لي من الإشارة إلى موضوعها: رجل من رجال المعهد في باريز، عضو في جمعيات علمية كثيرة، مختص بتاريخ آثار مصر وقع في حب راقصة من الراقصات، أما كيف كان يعيش هذا العالم وكيف وقع في حب الراقصة وما هي الأحاديث التي كان يساقطها إياها في الاجتماع فهذا روح القصة وإذا أمكن نقل الروح من رجل إلى رجل أمكن نقل روح هذه القصة من مقالها إلى هذا المقام.

تصور القاص موضوعه وحبك أطرافه أشد حبك، وقد أشفق

على بطله العالم في تضاعف القصة فلم يشأ أن يجعله هزأة، وإنما قدر علمه ووقر شيخوخته وجاراه في حبه حتى آخر القصة إلا أنه لم يفارقه في الخاتمة دون أن يسخر منه ألطف سخرية وأشدّها وقد جعل هذه السخرية على فم بائعة من بائعات الزهر، فقد حدث لهذه الراقصة حادث، فعلم الشيخ بهذا الحادث فعادها في بيتها وهي مستلقاة على الفراش ولما ودّعها وانحدر إلى باب البيت صادف بائعة زهر في دكان فطلب إليها أن تنتخب كل يوم باقة من الأزاهير وأن تقدمها للراقصة وتكتب عليها هذه الكلمات: شاب معجب مخلص. ودفع إليها الثمن فوافقت البائعة على مراده ثم صحبته إلى باب الدكان وهي تلمح إلى ظهره المتقوس وقبعته المثنية فهزت كتفيها وجمجت في قفاه: رح يا مجنون!؟

القصة من أولها إلى آخرها تصوّر عشق الشيوخ من العلماء ومن هم في طبقتهم ولما كان الحب كله جنوناً كان حب الشيوخ أشد هذا الجنون، لقد جمعت هذه القصة كثيراً من الفن وهذا ما حمل أصحاب مجلة *de Annales* على أن ينشروها وهم من كبار الأدباء إلى أن المهارة كل المهارة في الكلمة الأخيرة، في هذه الكلمة التي قذفت بها بائعة الزهر، فهي القصة، هي لحمها ودمها وعظمتها، فليست عبقرية القصة في الموضوع فالموضوعات كثيرة وليست في الطول والقصر، وإنما عبقرية القصة في روح صاحبها، وكما أن الشاعر يجعل من الأزاهير ربيعاً مطلقاً يكاد يتكلم وذلك

بلفظة واحدة كذلك القاص يجعل من قصته روعة بكلمة واحدة
تلخص القصة أبلغ تلخيص..

إذا كنت لم أمارس القصة ومارست المقال للأسباب التي
بسببها فقد انصرفت إلى نوع آخر من الأدب لأن الحياة انتقلت
إلى مهب جديد فانتقلت معها إلى طور جديد، وما هو هذا الطور
الجديد الذي دخلت فيه، لقد اتصلت بأدب الإفرنجية بعد المرحلة
الثانية التي أشرت إليها فوقفنا على أساليبهم في دراسة الأدب
وتدريسه، كنا في هذه الدراسة وهذا التدريس قبل اتصالنا بأدب
الغرب نعنى بالبحث عن ميلاد الشاعر ووفاته، عن جزالة ألفاظه
ورقتها وعن أشباه هذه الأمور، فلما وقع إلينا أدب الإفرنجية وجدنا
أن أهم عنصر من عناصر الدراسة والتدريس في الأدب إنما هو
التحليل، إنهم لا يقفون في الأدب عند ألفاظ بأعيانها أو عند
ظواهر الأمور ولكنهم يتغلغلون في البواطن، فالدراسة عبارة عن
الكشف عن نفوس غامضة أو واضحة، عن عواطف جليلة أو
دقيقة، عن أسرار ظاهرة أو باطنة، إنهم يتخذون النص سبيلاً إلى
معرفة الأشخاص، ولا يهملون في هذا كله لعناية بأمر الفن في
دراسة النص.

كل هذا كنا نجعله في أدبنا، أو كنت أنا أجهله حتى لا أظلم
أحدًا، فلما درست المتنبي والجاحظ في أول كلية آداب أنشئت في
هذه البلاد وذلك سنة ١٩٢٩ لجأت إلى أساليب الإفرنجية في
الدراسة والتدريس.

إلى أي شيء أفضت بنا هذه الاساليب، إلى أشياء كثيرة لا يتسع لها مجال هذا الحديث أو هذه القصة، ولكن لا مندوحة لي عن ذكر يسير من هذه الأشياء، كنت أحفظ من المتنبي أبياتاً أعنى قبل كل شيء بألفاظها وظواهر معانيها، ولكنني هذه المرة وجدت أن وراء هذه الألفاظ وهذه المعاني عالماً مלאً من الأسرار، لقد ظلمنا المتنبي كثيراً، وسنظلمه كثيراً، لأننا نظرنا إلى مجرد أماديجه ولم نستخرج الأسرار من وراء هذه الأماديج، لقد قرأت في كتب الإفرنجية أنه لولا «هوميروس» لما استطاع اليونان من بعده أن يغلبوا الفرس وإذا أضحي اليونان في القديم أكبر رجال البر في العالم فمرد بعض هذا الأمر إلى عبقريتهم في الشعر، لقد نمى الشعراء حوادثهم في شعر رائع نشأ عن الأساطير ثم نشأ تاريخ اليونان نفسه عن هذا الشعر، فإن الأسماء والصور والرموز والتقاليد التي ألف بها شعراء اليونان بين قبائلهم هي التي خلقت اتحاد اليونانيين، فلما قرأت شعر المتنبي لم أنظر إلى أماديجه في سيف الدولة إلا سبيلاً إلى خلق البطولات في العرب فلم أهتم بتشبيهاته وإن غلا فيها وباستعاراته وإن اشتط في بعضها وإنما اهتمت بهذه الروح الجديدة التي فطنت إليها في شعره، روح البطولة.

وكما اهتمت في دراسة المتنبي إلى أشياء كثيرة في جملتها تصوير البطولة فكذلك اهتمت في دراسة الجاحظ إلى أشياء وافرة، إذا فتحنا كتب الأدب وجدنا نوادير الجاحظ ولم نجد من نبه في

هذه الكتب قديمها وحديثها على علم الجاحظ وعلى فلسفته في هذا العلم، ولم نجد من نبه على لجوئه إلى الاستعانة بالحواس في معرفة الحقيقة ثم على عدوله عن هذه الطريقة التي تخطئ فيها الحواس إلى طريقة الشك فقد اتخذ الشك سبيلاً إلى اليقين، لم نجد في كتب الأدب من نبه على هذا كله ووازن بين طريقة الجاحظ، وبين طريقة «باكون» وديكارت، وهكذا كنت أنتقل في الأدب من طور إلى طور، ومن أفق إلى أفق لأن الحياة كانت تنتقل من طور إلى طور ومن أفق إلى أفق، من البساطة في ظواهرها والإنصراف إلى أكلها وشربها ولبسها إلى الجهاد في سبيل حريتها وسيادتها واستقلالها من عرض الدراسة في الأدب إلى جوهر هذه الدراسة.

وهذا دليل آخر قام في ذهني على أن الأدب والحياة متلازمان، لقد ظل الأدب قبل هذه المرحلة الثالثة من حياتي الأدبية جامداً، جافاً، فلما اتصلنا بأدب الافرنجة صار الجمود إلى الحركة وإلى الطراوة والجفاف.

ما أظن أن قصتي الأدبية تتم إذا أنا لم أقحم فيها الكلام على الشعر، لماذا مارست الشعر وكيف مارسته، هذا أمر لا أزال أجهله، وكل ما يخطر ببالي في هذا الباب أنني لما تركت المدرسة فاجأتنا الحرب الكبرى الأولى فجاش الشعر في صدري وأنا على غير استعداد له، لأنه يحتاج إلى أشياء كثيرة غير الأشياء التي تهبها الطبيعة، يحتاج إلى امتزاج بشعر الكبار من الشعراء حتى يألّف

الإنسان أساليهم وحتى يتصرف في صورهم ولم يتيسر لي في أول الأمر شيء من ذلك، والعادة أن الشعر يجيش في صدر صاحبه لأمر تدخل فيها عواطفه الخاصة، ولكن الشعر لما خطر ببالي كان يتصل بالحرب حوادثها فعملت أبياتاً أو قصيدة ولست أخجل من أن أقرّ في هذا المقام بأنها أسخف ما يعمله إنسان من الشعر ومع هذا فإني لآسف كل الأسف على ضياعها لأنها ذكرى كريمة ثم انصرفت بعد ذلك إلى مطالعة شعر المتقدمين فألفت بعض الألفة مناحيهم حتى إذا همدت نيران الحرب احتاجت البيئة إلى تأجيج نيران ثانية، نيران الوطنية، فسيطرت البيئة عليّ فلم أستطع التملص من تأثيرها فجريت في شعري على هيب هذه النيران ولما نشأ شعراء شباب وأخذوا يصورون في شعرهم ما يختلج في قلوبهم من مختلف العواطف لم يستطع هذا التيار أن يجرفني فبقيت في هذه الزاوية التي قبعت فيها ولا أزال في هذه الزاوية فإني أعتقد أن بيئتنا إذا احتاجت إلى النزاعات الوطنية في الماضي فإنها في هذا الحاضر أشد حاجة إليها فكأن الوطنية والقومية من خصائص أمتنا، ولا شك في أن من هذه النزعات إحياء ذكرى المتقدمين والمتأخرين من فحول شعرائنا ورجال وطنيتنا، فإذا أنا عملت شعراً في المتنبي والمعري وأبي تمام وشوقي ومطران فإني أخضع هذا الشعر لبواعث قومية، لأن شعرائنا الكبار الذين ولدوا على اختلاف العصور روح القومية في الأمة فلا أرى غرابة والحالة على نحو ما وصفت أن أبدأ بالشعر القومي وأن أستمر فيه حتى هذه الأيام،

على أن الشعر قد خلق لأشياء كثيرة، إنه يعبر عن أفراح البشرية وأحزانها، عن آلامها ولذاتها إنه صدى النفوس التي تذوق مرارة الفقر والمرض والجهل إنه عزاء البشرية، إلا أن غايات الشعر تختلف على اختلاف بيئاته، وبيئتنا على ما يظهر لا تزال تأنس

بالشعر القومي، فإذا أقيم من حين إلى آخر مهرجان للشعر فإن الشاعر الذي يدوي شعره في النفوس إنما هو الشاعر الذي يتغنى بآلام الأمة وعلى رأس هذه الآلام نكبة فلسطين.

إني أعتقد أنني بعد أن قصصت ما قصصت من حوادث أدبي قد انتهيت إلى اشتباك هذه الحوادث ويتلخص هذا الاشتباك في المعركة التي تدور رحاها في الأدب من ثلاثين سنة وأكثر وقد وقع مثل هذه المعركة في أدبنا في العصور الماضية بين ما كانوا يسمونه المتقدمين والمتأخرين أو الأوائل والأواخر ثم غير هذا الاسم في عصرنا، فدارت المعركة بين القديم والحديث ثم أطلق على رجال المعركة اسم الشيوخ والشباب وأخيراً اتفقوا والحمد لله على أن يسموها: معركة التقدميين والرجعيين.

لا أرى بأساً بأن أرجع بضع دقائق إلى الماضي البعيد حتى نرى رأي رجال أدبنا في هذا النوع من الحرب الهادئة التي لا تسفك فيها دماء، ولا تطير فيها جماجم، وإنني لا أكتفي بأقوال رجل واحد في هذا المعنى فإن قوله يلخص ثورة أدباء الماضي على أدب المتقدمين. قال أبو الحسين أحمد بن فارس: دومن ذا خطر على

المتأخر مضادة المتقدم، ولمه تأخذ بقول من قال: ما ترك الأول
للآخر شيئاً وتدع قول الآخر: كم ترك الأول للآخر، وهل الدنيا
إلا أزمان، ولكل زمان منها رجال، وهل العلوم بعد الأصول
المحفوظة إلا خطرات الأوهام ونتائج العقول، ومن قصر الآداب
على زمان محدود ووقفها على وقت محدود، ولمه لا ينظر الآخر
مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه ويرى
في كل ذلك رأيه، وما تقول الفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نواذر
الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم، أو ما علمت أن
لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة، ولمه حجرت واسعاً وحظرت
مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوفاً، وهل حبيب إلا
واحد من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ولما جاز أن
يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم وأهل النحو في مصنفاتهم، والنظار في
موضوعاتهم، وأرباب الصناعات في صناعاتهم، ولم يجز معارضه
أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه، أمر لا
يدرك ولا يدرك قدره ولو اقتصر الناس على كتب القدماء، لضاع
علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلت ألسن
لسنة، ولما وشى أحد خطابه، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة
ولجأت الأسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع
مضغ.

أظن أنه لو اجتمع كل المجددين في هذا العصر وأحبوا أن يأتوا

ببراهين قاطعة على ضرورة تجديدهم لما جاءوا بصفحة أبلغ من هذه الصفحة، لقد استشهدت بها من ثلاثين سنة وقلت في التعليق عليها:

أن عقل البشر ينسط أفقه من عصر إلى عصر، ويتسع مجاله من دهر إلى دهر، فيولد في انبساط هذا الأفق وإتساع هذا المجال ألفاظاً ومعاني لم تك من قبل وينشئ الأدب لهذه المعاني أساليب طريفة، ويفرغها في قوالب حديثه، وعلى هذا ينتقل الأدب من طور إلى طور ويدرج من حال إلى حال على تعاقب الأحقاب ولو ثبت هذا الأدب على أساليب محدودة لآتى عليه حين من الدهر.

لم يك فيه شيئاً، ولو تملص هذا الأدب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً إننا نجد مذاهب تولد ومذاهب تموت، وألفاظ تدفق وألفاظ تبعث، وأساليب تعيش وأساليب تنقرض. ما أعظم انقلابات الأفكار.

وها أنذا أعود بعد ثلاثين سنة إلى قولي نفسه فلا أعدل منه شيئاً فلست أرى في المعركة التي تشتد حيناً وتخف حيناً بين أصحابها خروجاً على الطبيعة أو انحرافاً عن سنتها فهي تقع في كل العصور وفي كل الأمم، فقد وقع مثلها في الأدب الأفرنسي في القرن السابع عشر، وكان اسمها معركة المتقدمين والمحدثين كانت أماني المحدثين أن يكون لمعاصريهم الحق الصريح في أن يعتقدوا من حيث المبدأ أنهم ليسوا على درجات أحظ من درجات كتاب القديم.

لا بأس بهذا كله، أن فكر البشر لا يثبت على حال فهو كريشة في مهب الريح، فقد ينشأ مذهب عصر من العصور ثم يأتي عصر فيعفى عليه ويطلع بمذهب جديد، فالتفكير الذي يظل على حال واحدة على اختلاف العصور إنما مثله كمثل الماء الراكد في المستنقع.

والتفكير في بلادنا لم يثبت على حال فقد اتصلنا بالغرب اتصالاً وثيقاً فلم نستطع أن نتخلص من بعض آثاره ولم نستطع أن نهرب من بعض مذاهبه في الأدب وغير الأدب، إني أمر على أسماء هذه المذاهب مروراً بحسب ما اصطلحوا عليها فهناك ما سموه الإبتاعية والرومانسية والواقعية والرمزية وما فوق الواقعية والوجودية المعاصرة والواقعية الحديثة والأدب الهادف.. أسماء فيها الخير والبركة والحمد لله، ولسنا ندري ما يطلع علينا المستقبل القريب أو البعيد من أسماء جديدة لمذاهب جديدة. كل هذا لا بأس به وإنما البأس كل البأس بتغيير روح اللغة وعبقريتها في ولادة المذاهب الجديدة ونشوتها، إن أحمد بن فارس وهو حامل لواء المجددين في القديم لما ثار ثورته العنيفة على المتقدمين لم يثر مثل هذه الثورة على لغة العرب، لقد حافظ على هذه اللغة، حافظ على طبعها وذوقها وكان يقدر هذا الطبع وهذا الذوق، هذا هو الفرق بين تجديده وتجديدنا، إننا نجدد، ولكن تجديدنا لا هو شرقي ولا هو غربي، ولا هو عربي ولا هو أعجمي، قد نغرق في مذاهب الإفرنجية

فننحرف عن مذاهب لغتنا ولا نفطن إلى أسرار الفن فيها فنتيه في
بيداء لا نعرف أولها ولا آخرها وإذا انحرفنا عن هذه المذاهب ضعنا
وضاعت لغتنا، إننا نعيش في عصر تكاد القومية تكون فيه شعارنا
وأظنا إن اللغة إنما هي شعار هذه القومية فإذا أضعنا روحها
وعبقريتها بين مهاب المذاهب الحديثة أو إذا ضعنا نحن في تضاعيف
هذه المذاهب فماذا يبقى لنا من القومية؟

لقد ثرنا في أدبنا على أشياء كثيرة ولا سيما على الشعر فقلنا أن
شعر المتقدمين لا يصلح لروح العصر الذي نعيش فيه، ولا شك في
أن لكل عصر روحاً خاصة به، فالشعر الذي قيل في فيافي البدو لا
يقال في قصور الحضرة، فإن شعر سقط اللوى والدخول وحومل لا
يناسب قصور بني العباس في بغداد وبني أمية في الأندلس، ولهذا
نجد من عصر إلى عصر مجددين في الشعر ولقد شهدت عصورنا
كثيراً من هؤلاء المجددين وعلى رأسهم أبو تمام لكن شعره الجديد
لم يقتبس روحه من الهند أو فارس أو الاغريق، إنه شعر عربي قبل
كل شيء، لقد خلع على اللغة ثوباً قشيباً لا عهد لها به من قبل،
فقرن ألفاظاً بألفاظ لم يكن بينها تقارن، وألف بين صور وصور لم
يكن بينها تآلف، إلا أنه جرى على طبع اللغة وذوقها فجاء شعره
عريباً حراً نقياً لقد تصرف في ألفاظ اللغة وأساليب مجازها تصرفاً
عبقرياً فإذا أضاف لفظاً إلى لفظ فلا نشعر بتنافر اللفظين وإذا مزج
صورة بصورة فلا نحس بتباعد الصورتين.

هذا ما نفهمه من روح التجديد وإذا كنا نعيش في عصر يرى فيه بعضهم أن شعر المتقدمين لا يصلح لروحه فإنني أول من ينتظر الشعر الجديد لأؤمن بها إلا أنني لا أؤمن إلا إذا وجدت في قلائده ما يفوق قلائد المتقدمين إن الأصل في الفن كله، قديمه وحديثه إنما هو الابتداع أما إذا كان الشعر الجديد ضرباً من الألغاز والأحاجي فأظن أن العقول غير مستعدة للتعب في فك هذه الألغاز وهذه الأحاجي وحسبها ما تعانیه من متاعب العصر فهي لا تحتاج إلى متاعب ثانية.

على أنني إذا أملت شيئاً فإنني آمل أن لا تباعد هذه المعركة التي رمزت إليها بين رجال المذهبين إن الأدب لم يخلق للتباعد وإنما خلق للتقريب، خلق لجمع الشتات وعرس المحبة، وما أظن أن هذه المسافة بين ما نسميه الشيوخ والشباب مترامية الأطراف، إنها مسافة مصطنعة لا ينبغي لها أن تمتد بين المتقدمين والمتأخرين أو الأوائل والأواخر أو القديم والحديث أو الشيوخ والشباب أو التقدميين والرجعيين، صلة قوية الأسباب لا يستطيع أحد أن يخربها إنها صلة اللغة، صلة الذوق والشعور والفكر وقد تختلف الأذواق ويتباين الشعور. ويتباعد الفكر ولكن اللغة واحدة فهي التي تؤلف بين المختلفين وتقرب بين المتباعدين، فليفرغ الفكر والذوق والشعور في صيغ مختلفة، الأصل في هذا كله إنما هو روح اللغة فإذا حافظنا على طبع هذه اللغة محافظة المتقدمين وآمنا بذوقها

إيمانهم وأخلصنا المحبة لعبقريتها وإخلاصهم فلا خوف علينا يومئذ.

أما الخلاف نفسه بين المذاهب فأظن أنه خلاف في الألفاظ لا في المعاني، لأن ما نسميه قديماً في عصرنا هذا كان جديداً بالنسبة إلى العصر الذي ظهر فيه وما نسميه جديداً في أيامنا هذه سيصبح قديماً بالنظر إلى الأيام الآتية فإن الحياة في تطور مستمر، لا يبقى فيها شيء على وضعه، فالتفكير قد يتبدل والموضوعات قد تتبدل، والاتجاه قد يتبدل، إنما الشيء الوحيد الثابت الذي لا يجوز له أن يغرق في مهاب التطور إنما هو روح اللغة نفسها، قد تتبدل من عصر إلى عصر وإنما روحها تظل عربية حرة نقية على ممر العصور.

وأخيراً سواء أعالجنا المقال أم عالجنا القصة والرواية وسواء كنا نمارس الشعر القومي أم كنا نمارس الشعر الغنائي، وسواء أ كنا من المتقدمين أم كنا من المتأخرين إن الأدب في هذه الحالات كلها لا يعيش ولا تتفتح أزاهيره إلا في ظلال الحرية.

من خمس وثلاثين سنة اقتنيت كتاباً اسمه: الكاتب العام، صاحبه من رجال الأكاديمية في باريز عدت من أسابيع إلى قراءة فصول هذا الكتاب، فمررت بهذه الفكرة في أحد فصوله، لقد اقترح ناد من أندية الكتاب على جمعية الأمم أن تنشئ جائزة لمن يعمل كتاباً ذا قيمة رفيعة، يث فيه مؤلفه أفكاراً عامة تنتفع بها كل الأمم

كالإيمان بالرجل والكمال الخلقى والعقلي ورفاهية البشر.
لقد رأى مؤلف الكاتب العام في أمثال هذه الجمل لغة رفيعة من حيث المبدأ إلا أن عواقبها غير محمودة لأن إجبار الكاتب في رأيه على تضمين كتابه أفكاراً تملئ عليه أملاً إنما هو تقييد لوحية وإلهامه، ولم أستشهد بكلام هذا الكاتب وأختم به قصتي الأدبية إلا لأبين أن تقييد الحرية في الأدب إنما هو تقييد للعبقرية حتى ولو كان هذا التقييد في موضوعات خلقية أو إنسانية، إن عاطفة الشاعر لا تتدفق إلا في أفق ملآن من الحرية وكذلك عبقرية الكاتب، فالتقييد يقضي على عواطف الشعراء وعبقريات الكتاب.

عميد كلية الآداب يقول: ما زال أدبنا بعدياً عن تصوير حياتنا

وقد أجاب الأستاذ شفيق جبيري على الأسئلة الثلاثة فقال حول «هل يمكننا تعيين بدء نقطة التحول في أدبنا السوري المعاصر؟»:
ج .. يرى فريق من اصحاب التأريخ الأدبي أن الأدب الحديث يرجع أول أمره إلى دخول نابليون مصر، ويرى فريق آخرون أن الأدب الحديث نشأ قبل دخول نابليون مصر وليس في هذين الرأيين شيء من الشطط.

فضل البعثات والرحلات على الأدب

مهد نابليون في مصر سبيلاً إلى تفتيح العقول على الرغم من أن غايته كانت الإستعمار فإن مجيء العلماء معه قد أبقى آثاراً في نواحي الفكر إلا أن آفاق هذا الفكر لم تنبسط إلا في زمن محمد علي لإتصال مصر بالغرب عن طريق البعثات والرحلات، وليس معنى هذا أن الأدب لم يكن له ظل في مصر قبل نابليون إلا أن هذا الأدب كان ضعيفاً ومن مظاهر ذلك الأدب تلك البلاغات التي كانت تصدر من قبل العلماء على أيام نابليون فالغالب عليها

السجع السخيف وليس من وراء هذا السجع فكر مختمر ولعل تاريخ الجبرتي من اقوى مظاهر الأدب في ذلك العصر.

وقد اهتمت إلى نماذج من مراسلات شرفاء مكة على عهد نابليون تكاد تكون من العامية وكذلك مراسلات من قبل سلاطين مراکش فالأدب قبل نابليون أو قبل محمد علي كان زحراً مفككاً.

الآثار الحديثة في الفكرة والفن

والذين يرون أن الأدب الحديث نشأ قبل دخول نابليون مصر ليس في رأيهم شيء من الإنحراف عن الصواب ففي سورية ولبنان نشأت مدارس أجنبية قبل نابليون وكان لهذه المدارس فضل في استفادة العقول من مراقدها فتعلم أبناء البلاد اللغة الفرنسية ثم اللغة الإنكليزية واطلعوا على شيء من أدب الفرنسيين والإنكليز واقتبسوا عن هذين الأدبين فنقلت روايات من القرن السابع عشر الفرنسي إلى اللغة العربية ومن جملة الذين نقلوا هذه الروايات أديب أسحق وانطلقت الأقلام في موضوعات الاجتماع فكتب الكتاب في الحرية والأخلاق وغير ذلك ثم سافر فئة من رجال الأدب والفكر إلى أوربة فاشتد اتصال الشرق بالغرب وانعكست على كتابات بعض الأدباء آثار الغرب ومن أبرز الذين ظهرت على كتاباتهم آثار الرحلات أحمد فارس الشدياق.

هذا رأي لم أتوخ فيه ضبط التأريخ دقته وإنما توخيت فيه التصريح بأن أول الأدب الحديث يرجع في الأغلب إلى اتصال بلاد

الشام ولبنان ومصر بأوربة أما عن طريق المدارس وإما عن طريق الرحلات فهذا الإتصال هو الذي أدخل على الفكر والفن آثار حديثة.

وكان جوابه على السؤال الثاني: «إلى أي حد يستمد أدبنا من حياتنا ما يلي:

ج - إنني أرى أن أدبنا ما زال بعيداً عن تصوير حياتنا على أن هذا الأدب قد اتصل في زمن من الأزمان بناحية من نواحي هذه الحياة، وهي الناحية الوطنية فأكثر الشعراء الذين نشأوا بعد جلاء الترك عن سورية تغنوا بحرية البلاد واستقلالها فعبروا عن الشعور الوطني واستحثوا الناس في شعرهم على مقاومة الأجانب وقد امتد هذا التغني حتى جلاء الفرنسيين عن سورية ثم نشأ شعراء منى الشباب غلب على شعر طائفة منهم شيء من الشعر الوجداني فيه كثير من الكآبة والقلق، وغلب على شعر طائفة آخرين شيء من النزعة الإنسانية فيها شيء من الشفقة على الفقير والضعيف.

وما خلا ذلك فإن الشعر ما يزال بعيداً عن التغلغل إلى الحياة ولا سيما عواطفها فليس في شعرنا من تحليل الأهواء والعواطف ما نراه في شعر كبار شعراء الفرنجة مثل شكسبير في الإنكليز وراسين في الفرنسيين.

الرجوع إلى الماضي وترك الحاضر

أما النثر فلم تنتشر الروايات والقصص التي تحلل حياتنا تحليلاً

دقيقاً فلا أكاد أعرف في سورية رواية حديثة حلل صاحبها ناحية من نواحيها ما خلا روايات الأستاذ معروف الأرنؤوط التي رجع فيها صاحبها إلى الماضي ولم يتصل بالحاضر.

أما القصص التي تنشر فأكثرها مجرد من الفن ومن الفكر، فما زلنا نعتقد أن القصة عبارة عن حكاية نحكيها نحشر فيها كل شيء ولا أثر فيها لشيء من معرفة علم النفس تعيننا على الاتصال بأسرار الأهواء والعواطف، ولا أثر فيها لشيء من معرفة علم الاجتماع تعيننا على تصوير حياتنا الاجتماعية.

على أني لا أرى مندوحة من التنويه ببعض قصص السيدات وفي مقدمتهن السيدة سلمى الحفار والسيدة ألفة الأدبي فقد تغلب على قصصهما بساطة القصة وطبعها وقربها من الواقع وهي قصص تشتمل على وصف بعض آفاق من حياتنا الاجتماعية كالزواج وغيره.

وأجب على السؤال الثالث: «هل يمهد أدبنا للثورة الاجتماعية؟» بما يلي:

ج - إذا كان رأيي أن أدبنا ما زال بعيداً عن تصوير حياتنا فمعنى ذلك أن أدبنا لا يمهد لشيء اسمه ثورة اجتماعية، ثم ماهو المقصد من قولنا ثورة اجتماعية. أهى ثورة الطبقات الفقيرة على الطبقات الغنية! أم هي ثورة الأغنياء على الفقراء، أم هي ثورة على أوضاعنا الاجتماعية كلها، على ملكية الفرد، على توزيع الثروة،

على الإستثمار بمرافق الحياة فإن هذا السؤال يحتاج إلى بعض التوضيح.

أدبنا لا يمهد للثورات

وعلى كل حال إن أدبنا لا يمهد لشيء من هذه الثورات المختلفة فأين الروايات أو القصص التي تصور فقر الفقراء أو غنى الأغنياء أو ضعف الضعفاء أو استئثار المستأثرين، فإن الثورات الاجتماعية عادة تكون نتيجة لثورة أدبية كما كان الأمر مثلاً في فرنسة فالثورة الفرنسية كانت نتيجة كتابات فولتير وروسو ومونتسكيو وأمثالهم.

فأين كتابنا وشعراؤنا الذين يمهدون لمظاهر الثورة الاجتماعية؟ فالأدب في هذا المعنى لم يفعل فعله بعد، ولكن الذي أراه أن عقول الشباب تستعد لهذه الثورة عن طريق غير طريق أدبنا فقد اشتدت قراءة آثار بعض كتاب أوروبا ورواياتهم التي كثرت استفاضتها بين ظهرانينا فالثورة الاجتماعية إذا انفجرت في يوم من الأيام أو إذا شرعت تتفجر فهي لم تكن بنت أدبنا وإنما هي نتيجة التطور الحديث في العالم وفي بلادنا خاصة

في منابت الشيخ ربيع الغوطة

نعم إننا لم نتعلم حب الوطن، ولكنني لا أريد الترسل في هذه النغمة، فقد لا يكون وقعها حسناً في الآذان، لأنها كلمة حق، والحق مر في كل زمان، فلنعجل في الخروج إلى هذا الوطن الذي لم نتعلم حبه، ولنتعرف إلى أرضه وسمائه، ولنستلهم هذه الأرض وهذه السماء صوراً إن لم تشتمل على شيء من البهجة والرونق فإنها تشتمل على كثير من المجد والفخر، وأي مجد أروع من أن يخرج قوم من ظلمات الصحراء، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، فتخضع لسيوفهم أبعد الأمم مذاهب في الحضارة والثقافة حتى أصبحوا في أسرع من طرفة عين أحاديث على فهم الدنيا، وخواطر على بال الأيام، فما لبثت هذه الأحاديث أن خفتت وهذه الخواطر أن همدت، وتلك الأيام نداولها بين الناس، ومن يدري فقد تطلع على الدنيا هذه الصحراء الكامدة بمثل ما طلعت عليها في الماضي، ولعل هذه الأماني التي لمستها في شعر شباب مكة، وكلها تفيض بمعنى واحد وهو: وحدة العرب، لعل هذه الأماني يحققها الله، فقد أصبح قتل الأمم على نحو ما قال «فيكتور

هو غوء متعذراً، مثل الحق في هذه الأرض كمثل الشمس في السماء، تكسف حيناً ثم يسطع نورها تحيي الشعوب ويموت الاستبداد: سنة لله في خلقه.

فلنعجل في الخروج إلى هذا الوطن، ولنتغلغل في هذه الصحراوات التي كانت لنا في قديم الدهر حصناً حصيناً، ولكن هل تمر بنا السيارة على قرى الغوطة في ٨ آذار وهل نشهد رفيف الربيع على كل بقعة من بقاعها، على عشبها وعلى سنابلها وعلى مشمشها، وعلى جوزها، وعلى زيتونها، وعلى حورها، وعلى ضفافها، هل نشهد نسيم الضحى يناغي كل غصن من أغصانها وكل زهر من أزاهيرها، وكل سنبل من سنابل زرعها، وهل نسمع موسيقى الماء بين حورها وصفصافها، وبين عشبها وشقائقها من دون أن نزود آذاننا من هذه الموسيقى، وعيوننا من هذه الخضرة، وأنافنا من هذا الأريج، وإذا كان ذلك النجدي تمتع من عرار نجد قبل سفره خوفاً من أن يفوته هذا العرار بعد العشية فما أخلقنا أن نتمتع من هذه المحاسن كلها قبل أن نعرف عرار نجد وعرفج الدهناء.

ولقد كنت قبل السفر أخرج إلى الغوطة في كل يوم وأمتع الحواس بكل قطعة من قطعها، فاملاً الأذن من سقسقة عصافيرها ومن نقيق ضفادعها ومن قسيب مائها ومن حفيف شجرها، وأملاً العين من خضرة سنابلها وحمرة شقائقها، وبياض أزاهيرها وأستند

إلى هذا الجوز النبات على شواطئ مائها، فوالله لم أشبع من منظر من مناظرها، لا من هذه السماء التي تحجبها خضرة الشجر فلا ترى منها إلا قطعاً مبعثرة، ولا من هذه الغنم وهذه المعزى وهي ترعى بمرأى مني فأستأنس بثغائها ويعارها، ولقد شهدت الطبيعة في بلدان كثيرة من أوربة فشهدتها على رؤوس الجبال وعلى صفاح الجبال وشهدتها من أوربة فشهدتها على صفحات الماء وعلى سهول مديدة، وتلال شجيرة، أما مثل هذه الغوطة الغناء التي أجمع شجرها بعضه إلى بعض، وتكاثف زرعها بعضه فوق بعض حتى أصبحت كأنها روضة واحدة، أما مثل هذه الغوطة فلم تر عيني في كل ما زرت من بلاد أوربة ولم أعرف نعمة الغوطة ولم أقدر فتنها حق قدرها ولم أشعر بسحرها إلا بعد أن بعدت، عنها فلم نر بعد هذا البحر الأخضر إلا بجزراً من رمل أو من تراب أو من وعر.

غير أنني أمر بهذه المحاسن كلها فلا أتزود منها لأن صور الغوطة لا تصحبنى بعد أن أخرج من ضمير دقيقة واحدة، ولكنني أتزود من صورة واحدة تصحبنى في الصحراء، وتملاً نفسي الدهر كله، هذه الصورة إنما هي صورة سنديانة نبتت في قرية من قرى الغوطة، في «زملكا» ورمت ظلها على مقبرة هذه القرية، فما أحببت أن تحرم أبناءها هدوء الفياء بعد موتهم، وقد عاشوا كل أيامهم في هذه الأفياء الهادئة، على قشر هذه السنديانة آثار كثيرة لا

تخطر ببالك، إنها آثار مدافع وطائرات، ودبابات، ولكن هذا كله لم يقتل السنديانة فقد بقي أصلها في الأرض وفرعها في الماء، ففي كل يوم يزداد نموها فإن أبناءها الذين عطف عليهم بعد موتهم فأظلتهم أغصانها عطفوا عليها في قبورهم، ففدتها عظامهم البالية، فما حرموها غذائها ولا حرمتهم ظلها، إن صورة هذه السنديانة تغمر في العمر كله لأنها صورة دمشق نفسها، فقد نابت دمشق نوائب وأصابتها مصائب وبقيت خالدة على الرغم من نوائبها ومصائبها، ترمي ظلالها على الأحياء من أبنائها وعلى الموتى منهم، وغداؤها مثل غذاء السنديانة يغذيها تراب بقاع من أرضها ملئت من عظام أضياعها ورويت من دم هذه الأضاحي ولهذا خلدت دمشق على وجه الدهر لأنها بنت الماضي البعيد، مرت عليها أحقاب طويلة ثم انطوت هذه الأحقاب وبقيت دمشق وحدها.

هذه آخر صورة أخرج بها في ٨ آذار من دمشق، قد لا أجد فيها موسيقى تلهو بها العين، ولكنني أجد في طيها معنى ينمو به فكر وطني وشعور وطني، وعاطفة وطنية وما أشد حاجتنا إلى مثل هذا الفكر وهذا الشعور وهذه العاطفة فسلام على دمشق يوم ولدت ويوم تخلد على وجه الدهر!

حول مقال خواطر وآراء بثيرها كتاب وحي العصر

أعجبني مقال الأستاذ محمود سيف الدين الإيراني وعنوانه
خواطر وآراء يثيرها كتاب وحي العصر.

إن هذا المقال ملآن من التفكير، والحقيقة أن أدبنا لا يزال في
عزلة عن حياتنا الخاصة والعامة، خذ لك مثلاً ناحية من نواحي
هذه الحياة، ناحية الشعور الوطني، فإن أدباءنا لا يتعرضون
لأوطانهم في أدبهم، فهم لا يتغنون بأرضهم ولا بسماهم ولا
بجبالهم ولا بسهولهم ولا بأنهارهم ولا ببحارهم، ولست أدري
كيف تريد مصر أن تسلم من الإنكليز وأدباؤها إلى اليوم لم يجيبوا
إلى المصري نيله وأهرامه وأريافه ونخيله، ولست أدري كيف تريد
أن نسلم من شر الفرنسيين في الشام ومن شر الصهيونية في فلسطين
ونحن لا نفكر في الامتزاج بكل جزء من أجزاء هذا الوطن الكريم،
وأقسم أن هذا الوطن فتان بطبيعته، فقد أقيمت بجزء منه في سنة
١٩١٣ فأقيمت بيافا الساحرة وكنا أربعة نستظل كل يوم بظل
بياراتها ونملأ عيوننا من التفاف شجرها ونملأ أذاننا من موسيقى

بركها، ونضطجع على رملها وكأنه أرائك من حرير ناعم، ولقد طفت أماكن غير قليلة في أوربة، فرأيت طائفة من ريف انكلترا وفرنسة وسويسرة وإيطالية ولست أبالغ في القول إذا قلت إنني لم أر في هذا الريف كله شجراً ملتفاً التفاف البرتقال في يافا، فإن هذه المدينة نسيجة وحدها ببياراتها وبركها وبرتقالها وبحرها ورملها ما يسمونه في الأدب الغربي: لون محلي أو طابع محلي، نعم كنا أربعة نملاً أنفسنا من هذه المشاهد الرائعة فلا تكاد تفارق ذهني صورة يافا، فأنا أمر بها كل سنة بوجه التقريب، فأزور فيها قبوراً عزيزة عليّ وهي قبور جدي ووالدي وأخي وأتمتع بهذا الشجر الملتف الذي كنت أتمتع به في حدائق السن. فأرجع إلى اثنين وعشرين سنة وأنعم بهدوء البال الذي كنت أنعم به في تلك الأيام الطيبة، إنني أعتقد لو تعلمنا حب هذا الشجر المتشابك وحب هذه البيارات وهذه البرك وهذا الرمل وهذا البحر وتسلسل فينا هذا الحب أحقاباً لما سهل على أي صهيوني أن ينزع منا شبر أرض، ولما سهل على أي انكليزي وعلى أي افرنسي أن يزاحمنا على بقعة من بقاع الشام وفلسطين ومصر، والغريب أننا حتى اليوم لم نفكر في هذا المذهب الأدبي، أي مذهب الشعور الوطني، فكأن مرارة المستعمرين لم تؤثر فينا بعد وهي مرارة أليمة، ففي باريز: إذا قلعوا شجرة مغروسة في شارع من شوارعها عمرها ثلاثة أو أربعة قرون، قاموا وقعدوا من أجل هذه الشجرة، وقالوا: إنها شهدت فلاناً من

القواد وفلاناً من الشعراء، فيجعلون لهذه الشجرة حياة، هذا هو الشعور الوطني الذي لا تؤثر فيه نيران المدافع، ولقد حضرت في أثناء مروري بباريز رواية في «كازينو دي باري» فيها فصول مختلفة ولكن الفصل الذي لا أنساه إنما هو تغني أهل القرى وأهل الجبال وأهل السهول بأرضهم، فكنت ترى الراعي يرقص رقصة الرعيان ويتغنى بمراعيه، وكنت ترى العنّاب يتغنى بعنبيه وبكرومه، وكنت ترى ساكن مرسيلية يتغنى ببلاده ويفاخر بلهجته الخاصة وينشد الأشعار في تأييد هذه اللهجة وكذلك أهل الجبال وأهل السهول فكلهم كانوا يتغنون بوطنهم الأصغر المتمم لوطنهم الأكبر.

إنني لا أنسى هذه الليلة التي قضيتها في «كازينو دي باري» لأنها علمتني كيف يكون حب الوطن ونبهتني على تقصيرنا في هذا الباب.

تيسر لي في الربيع الماضي أن أضرب في منابت الشيح والقيصوم أي في صحراوات العراق ونجد والحجاز وبعد أن خرجت من دمشق تراءت لي كآبة البادية فلا خضرة تبهج العين ولا ماء ينقع الغليل، لقد كنت أجد بدلا من هذه الخطرة وهذا الماء شمساً يصهر الوجوه جواهرها أجرها وسماء كامدة اللون كثيبة الأديم ينعكس كمدّها وكآبتها فوق الوجه فتزداد النفس انقباضاً، فمن بادية الشام إلى جبال مكة لم أجد إلا صحراوات ملئت من تراب أو من

وعرٍ أو من رمل، ومع هذا كله فإن العرب في قديم الدهر تعلقوا بكل جزء من أجزاء هذه البوادي مهما يكن من كمدى سمائها وتقطيب أفقها وحر هواجرها ومحرمي أرضها وجبالها ووحشة كل بقعة من بقاعها، ولقد فاضت في شعرهم العاطفة الوطنية.

أفلم يبك أمرؤ القيس على منازل فارقتها بسقط اللوى، أفلم يستبك صحبه على هذه المنازل، أفلم يقل لنا أن برءه من دائه كان بدمع يصبه على الرسوم الدارسة، أفلم يتغن بهذه الطبيعة الكامدة الكثيبة، وينفخ فيها روحاً حتى لتكاد تتكلم، أفلم يحيي بشعره وميض برقها وغزارة سحابها وعظيم دوحها ونخيلها وأطامها، إنه تغنى بهذا كله وحن إلى هذا كله واتصل بأرضه وسمائه وارتبط بهما واستأنس بكل ما وقعت عليه عينه في هذه الأرض وتحت هذه السماء من حيوان وطير ونبات فكان في شعره حس وطني على مصطلح هذا العصر فالوطنية إنما هي ارتباط المرء بأرضه وبسمائه وبسهله وبجبله وبجوانه ونباتاته حتى يكون جزءاً من هذا الوطن وحتى يكون الوطن جزءاً من نفسه.

وما أقوله في امرئ القيس أستطيع أن أقوله في إخوانه طرفة ولبيد وعنتر وغيرهم، فكأن شعراءنا في القديم كان فهمهم للأدب أحسن من فهمنا له في هذا العصر، كأنهم كانوا يعرفون أن الأدب أشد الأشياء تقديساً وهو الوطن!

هذه خواطر أوحاها إليّ مقال الأستاذ الإيراني الملائن من التفكير
كما قلت، وقبل أن أقرأ هذا المقال الناضج كنت أنعم بمطالعة
فصلٍ من فصول «أناطول فرانس» البليغة يتغنّى فيه بنهر «السين»
الذي يجري أمام داره وقد رأيت هذه السين، وهذه الدار، فمتى
أقرأ في أدبنا مثل هذه الفصول الناطقة، ومتى أرى في هذا الأدب
صورة وطننا!

الفرق بين أسلوب الأديب وأسلوب الصحفي

هل من فرق بين أسلوب الأديب وأسلوب الصحفي، فكرت قليلاً في الأمر وقلت في نفسي: هل يستغنى أسلوب الصحفي عن روح الأدب، أفلا يجب على هذا الأسلوب أن تظهر عليه آثار الأدب، وذهبت بعد هذا التفكير إلى أن الصحافة لا بد لصاحبها من روح أدبية، وأظن أن رجال الصحافة الذين نجحوا في صناعتهم إنما هم الذين رزقوا من الأدب حظاً غير يسير.

وقبل أن أشرع في توضيح فكرتي لا أرى بأساً بالإشارة إلى أنني عالجت الصحافة في فاتحة أمري وأدركت مواطن الخطأ في معالجاتي، فقد كنت أهتم في حداثة سني بالتفتيش عن لفظ ضخمة أضمنه مقالي إعتقاداً مني أن ضخامة هذا اللفظ تزيد في ضخامة منزلة الكاتب وبقيت على هذا الاعتقاد بعض الزمن ولكني لما تقدمت في السن والمطالعة ذهب أثر هذا الاعتقاد وأصبحت أومن بأن اللفظ السهل هو الذي تحتاج إليه الصحافة فصرت إذا كتبت مقالاً في جريدة أعنى بسهولة التعبير وبساطة البيان فإن الصحافة لا غنى لها عن هذه السهولة، وهذه البساطة وكنت أتتبع بعض

الكتاب الذين يتقعون في بيانهم الصحفي فأرى أن الذين يتقعون ينفرون القراء عنهم. إن قارئ الجريدة يهمله قبل كل شيء إذا وقع نظره على خبر أو تعليق أو مقال أن يصل ذهنه إلى إدراك ما يشتمل عليه هذا الخبر أو هذا التعليق أو هذا المقال في أسرع وقت، لأن وقته لا يتسع لإطالة الروية في أبواب البديع والبيان، فالصحفي يلزمه أن يكون بيانه سهلاً وبسيطاً وقد يحتاج في هذه السهولة والبساطة إلى الإيجاز والذين يسهون في كتابة أخبارهم ومقالاتهم يخرجون عن روح الصحافة وقد وجدت أن بعض الكتاب يضيق أفق تفكيرهم فيستعينون على هذا الضيق بتوسيع أفق بيانهم فيعبرون عن الفكرة الواحدة بجمل متعددة، وأعتقد أن هذا مناف لأصول الصحافة فإذا كان وقت قارئ الجريدة يضيق عن التفكير في ألفاظ تظهر عليها روح التقعر فإن هذا الوقت يضيق عن قراءة جمل متعددة تعبر عن فكرة واحدة. سهولة في اللفظ، وبساطة في البيان، وإيجاز في العبير، هذه هي على ما أعتقد عناصر أسلوب الصحفي ولكن هل في العرب والإفرنجة؛ هم الذين يميلون في بيانهم إلى السهولة والبساطة والإيجاز فلا نشهد في كتاباتهم آثار التقعر أو الغلو في أبواب البديع والبيان إلا أن الأدباء في حاجتهم إلى هذه الصفات، السهولة والبساطة والإيجاز يحتاجون أيضاً إلى العناية بالفن أي بالجمال وقد تكون عنايتهم أشد من عناية رجال الصحافة، فالصحفي وقته ضيق ومستوى قارئ جريدته وسط، فلا تسع وقته للتفتيش عن طرق

الجمال في تصوير فكرته، أما الأديب فإن همه قبل كل شيء ينصرف إلى البحث عن هذه الطرق ولكل أديب أسلوب في الإفصاح عن الجمال، واحد يهمه الإهداء إلى لفظ محسوس ناطق أو إلى تشبيه نادر أو إلى استعارة طريفة، وواحد يهمه الاستعلاء بألفاظه وجمله حتى يبعد عن مستوى الناس ويعيش في مستوى منفرد، وما يهتم به الأديب في بيانه يقل إهتمام الصحفي به في صحافته، أو على تعبير أضبط، قد يختلف إهتمام الأديب بالجمال عن إهتمام الصحفي، فالصحفي يعيش مع الناس في تفكيرهم وذوقهم وشعورهم وفي الإفصاح عن هذا التفكير والذوق والشعور ولا يبعد عن هؤلاء الناس إلا قليلاً، أما الأديب فإنه يعيش مع الناس ومع نفسه في وقت واحد إنه يعيش مع الناس في تفكيرهم وذوقهم وشعورهم ولكنه يعيش مع نفسه في الإفصاح عن هذه الأمور، وأرجو أن لا يكون في فكرتي هذه بعض الغموض، إن الأديب يفكر كما يفكر كل واحد منا ويشعر كما يشعر كل واحد من الناس، ولكنه لا يعبر عن تفكيره وشعوره مثل تعبير كل واحد منهم، إن له أسلوبه الخاص في هذا التعبير وهذا الأسلوب هو الذي يجعل فرقاً بين كاتب وكاتب. ندخل بهواً فيه سيدات متأنقات في ملابسهن فإذا بحثنا عن هذه الملابس وجدناها متقاربة في الجنس، إلا أن الذي يفرق بين سيدة وسيدة في بعض الأوقات إنما هو منديل تطرحه سيدة على عنقها فيجعل لها رونقاً لا يكون لغيرها أو سواراً تلفه على معصمها فتظهر محاسن هذا المعصم أو

جلسة خاصة تجلسها على مقعدها لا تشبه جلسات غيرها، وهكذا الأدباء فإن الذي يميز بين أديب وأديب إنما هي طريقة التعبير عن فكر وشعور يتساوى الناس فيهما، فالأديب يعتني بهذه الطريقة أكثر من إعتناء الصحفي.

وفي كل حال لا بد للصحفي وللأديب من العناية بالبيان، إلا أن هذه العناية تختلف بعض الاختلاف، فالصحفي يهتم الوصول إلى تصوير فكرته من أقرب الطرق وانبساطها، والأديب يهتم الوصول إلى هذا التصوير من الطريق نفسها ولكنه قد يعرج في طريقه على بعض أبواب من أبواب محاسن التصوير أكثر من تعريج أهل الصحافة.

أسلوبان

لا أتعرض لما تعرض له صاحبنا المعالي: شاكر الحنبلي وتوفيق شامية، ولكنني لم أشأ أن أمراً بمقاليهما الأخيرين دون أن أدون ما خطر ببالي وأنا أقلب النظر في هذا النمط من المناظرة.

إنني لا أتكلم إلا من ناحية الأسلوب، ولا أريد بالأسلوب التنبيه على نوع من أنواع البديع وأشباه ذلك وإنما أريد به طريقة المجادلة.

أما معالي شاكر الحنبلي فقد غلبت عليه الأستاذية فكأنه على المنبر يقر درسه فلا ترى في قوله إلا الحججة البليغة ولا غرابة في ذلك فقد كان مفخرة معهد الحقوق في الماضي وهو الآن من مفاخر سورية.

وأما معالي توفيق شامية فقد لجأ إلى السخرية دون شيء من الأذى والإيلام وهي الطريقة التي قال فيها فولتير: إذا شئت أن تقتل خصمك فاجعله ضحكة وهذه طريقة لا يتقنها كل واحد منا.

أجد في بعض الأحيان ثورة على الشيوخ ولكن إذا كان شيوخنا

من هذا الطراز فأكرم بشيخوختهم، إنني لا أخرج على نزعة الشباب، فأنا أعيش بين أساتذة شباب وبين طلاب شباب وأنعم بصحبتهم ولكن هذا لا يمنعني أن أعطي الشيوخ حقهم إذا كانوا أهل هذا الحق.

لقد تناكرنا ماضينا القريب، ونحن لا نعلم أننا إذا نعم حاضرننا بشيء من نعم الفكر أو السيادة أو الاستقلال فالفضل في ذلك يرجع إلى هذا الماضي الذي تناكرناه وإلى طائفة من رجاله.

ولكن ما إلى هذا قصدت في مقالي الوجيز وإنما الذي توخيت إيضاحه إنما هو هذا الطور الجديد الذي دخلت فيه صحافتنا. لقد كان يؤلنا أسلوب فيه بعض سوء القول فلا يستطيع صاحب فكر أن يبدي رأيه في مسألة حرصاً على كرامته من أن يثلمها فلم جامع، على أن رأس الديمقراطية على ما نعتقد حرية الفكر والشعور، فالأسلوب الذي لجأ إليه صاحب المعالي شاعر الحنبلي وتوفيق شامية إنما هو أسلوب منزه، فيه حجة ولكنها قوية وفيه سخرية ولكنها بريئة.

لقد اندفعت بعض الأقلام وبعض الألسن في نوع من الشتم والقذف فلا يكاد أحد يظهر رأيه في أمر من الأمور إلا قالوا فيه أنه من أذئاب الاستعمار ولا يكاد أحد يستحسن مشروعاً أو يستقبحه إلا قالوا فيه أن المستعمرين هم الذين دفعوه إلى هذا الاستحسان أو هذا الاستقباح، فكأن المستعمرين واقفون في سقوف حلوقنا فإذا

عطس واحد من الناس قالوا أن المستعمرين هم الذين عطسوه، وإذا اختلفت زوجة وزوجها قالوا إن المستعمرين هم الذين دفعوا الزوجة أو حرضوا الزوج وإذا قال واحد لا إله إلا الله قالوا إن المستعمرين هم الذين حثوه على الإيمان أو على الكفر. فأين الديمقراطية وأين أصولها.

لا نشك في نيات المستعمرين السيئة ولقد عانينا منهم أشياء كثيرة ولا نزال نعاني ولكن أفلا نستطيع أن نرد على أحد يخالفنا في الرأي دون شيء من الشتم والقذف، أفلا نهتم بالحجة وحدها فإن الإندفاع في القذف معناه ضعف الحجة والهرب من المنطق.

إن صاحبي المعالي شاكر الحنبلي وتوفيق شامية طلعا علينا بأسلوبيين: أحدهما يفند رأي الخصم دون شيء من الفحش، والثاني يجعل الخصم ضحكة دون شيء من الأذى وهذه فاتحة خير في الصحافة.

الحجة لا تدفع إلا بالحجة أما قولنا أن فلاناً من أذئاب الاستعمار أو أن فلاناً من المأجورين، إذا صح في زمن من الأزمان فهو في هذا الزمن أشبه شيء بنجيمة كره كوز!

مظاهر الحرية في العرب

خلاصة محاضرة شاعر الشام وأديبها الأستاذ شفيق جبيري عميد
كلية الآداب

افتتح الأستاذ المحاضر محاضرتَه بكلام المؤرخ المسعودي على
سبب اختيار العرب لسكنى البدو، فالعرب في القديم اختاروا
البادية حتى يكونوا محكمين في الأرض بعيدين من التقييد والجنس
والحصر.

ثم شرح كلام المسعودي بلغة هذا العصر، فذكر أن السبب في
اختيار البادية ناشئ عن الميل إلى الحرية، فالبادية هي التي ولدت في
العرب الشغف بالحرية فلما انتشرت فكرة الدولة فيهم بعد
الإسلام، نقلوا إليها الحرية التي ورثوها في الصحراء.

ثم لخص أقسام محاضرتَه فحصرها في الكلام على الحرية في
الدين والأدب والسياسة القومية وحرية المرأة والتربية والقضاء
وحرية أهل الكتاب، وحرية الناس في مقامات الخلفاء والأمراء
والعمال.

بدأ بالبحث عن الحرية في الدين، فكلم على المعتزلة الذين يسمونهم أصحاب الفكر الحر، وحصر بحثه في إمام من أئمتهم وهو الجاحظ فذكر فضل الجاحظ في أمور الدين والعلم واستشهد بمثلين من تفسيره وتأويله، وأشار إلى مكانة المعتزلة في تخلص الدين من الخرافات والأباطيل.

ثم انتقل إلى البحث عن الحرية في الأدب فذكر أقوال إمامين كبيرين في هذه الحرية وهما ابن قتيبة وابن فارس اللذين لا يريدان أن يحصر الأديب في زمن من الأزمان وفي أفق من الآفاق، وعلق على أقوالهما، فبين فضل الحرية في الأدب التي جعلته يستعد لقبول الأفكار الحديثة في الفلسفة والعلم والعواطف الجديدة في الشعر.

ثم أتى على ذكر الحرية في السياسة القومية فتكلم على الشعوبية وعلى غاياتهم في تهديم العرب من كل النواحي وقال إن اتساع صدور العرب لمزاعم الشعوبية أكبر دليل على الحرية في ذلك الزمن.

وبعد هذا كله بلغ إلى الكلام على الحرية الاجتماعية، فصور حرية المرأة في الزواج وفي التحدث إلى الرجال ووصف بعض مجالسها الأدبية وتكلم على الحج الذي كان أكبر معارض حرية المرأة ثم بحث عن ثقافة المرأة في هذه الحرية.

ثم أتى على ذكر حرية التربية في الدور والمنازل فذكر كيف كان الأبناء يصرحون بآرائهم في آباءهم دون شيء من التهييب، ثم

تكلم على استعمال الناس حریتهم في القضاء وعلى استعمال الناس حریتهم في القضاء وعلى مسامحة القضاة الكبار أمثال أبي حنیفة ویحیی بن أكثم.

ولم يتمتع المسلمون وحدهم بهذه الحريات فقد كان لأهل الكتاب امتیاز خاص، فكانت العرب تعطف على النصاری للملك الذي كان لهم قبل الإسلام وللقرابة، فكان منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك وأطبائ الأشراف، أما اليهود فقد كانوا یحسدون المسلمین، ولذلك كان المسلمون یبغضونهم.

وبعد أن وصف المحاضر أنواع هذه الحريات، دخل بالجمهور قصور الخلفاء والأمراء والعمال على زمن بني أمية وبني العباس وأسمعهم ما كان یدور في تلك القصور من نقد الخلفاء في سیاستهم وأخلاقهم وأمزجتهم وطبائعهم فقد كان الناس يستطلعون عليهم ویطعنون على نزاهتهم في وجوههم ویطنون من مقاديرهم وینبذون بینائهم ویسمعونهم ما یكرههم ویبغضهم ویبکیهم وكان الخلفاء یحملون عنهم ویسکتون.

ثم ختم الأستاذ المحاضر محاضرتة بقوله: إن هذه الحريات لم تكن مضطردة في تاریخنا فقد كان یقع في عصر واحد كثير من العنف والمسامحة. ورد أسباب هذا التناقض إلى فقدان المبدأ العام في الدولة فلم یكن للدولة مبادئ واحدة یجري علیها الخلفاء والأمراء والعمال وإنما كانوا یعملون بحسب أمزجتهم وأخلاقهم وأهوائهم

في أكثر الأحيان، ولهذا وقع العنف إلى جنب الحرية، فقد كان الشعراء أجراً الناس على أصحاب السلطان، ولكنهم كما كانوا رسل الحرية كانوا ضحاياها أمثال بشار وأبي العتاهية ودعبل غيرهم.

وكان آخر كلامه: ليست الحرية قولاً مؤلفاً من حروف، وإنما الحرية عقيدة مؤلفة من إيمان وما دامت الجامعة السورية قد خلقت لترويض العقول على الحرية فالحرية ستكون عقيدة النشء الكريم في الحاضر والآتي.

الأيام ١٩٥٠

إلى أخي سعيد التلاوي

بعث إلينا الأخ القديم والصديق الكريم الأستاذ شفيق جبيري بمقال رائع يعقب فيه على مقالنا أمس «بعد غياب شهر» وهو كما سيراه القراء الأجزاء آية من آيات الفن العالي، وصورة من صور الأدب المشرق وصفحة من صفحات البلاغة ننشره بما فيه ليسر قراء العربية بشيء جديد من إنتاج شاعر الشام الكبير وأديب الجيل الشهير، قال الأستاذ شفيق جبيري حفظه الله:

أحمد الله تعالى على رجوعك إلى «فيحائك» وأنت معافى في بدنك، آمن في نفسك، فقد كنت في خلال غيبتك مشغول الفكر بهذه الغيبة، لأنك كنت رويت لي حديث فتى هولندي قال لك أن أندونيسية تكثر فيها الأفاعي والعقارب فلما رحلت رحلتك الميمونة قرأت لك آية الكرسي ودعوت الله في السر والعلانية أن ينجيك من كل نهشة ومن كل لسعة ولكني تذكرت بعد هذا كله مناعة جسمك فلم أخف أن تقتلك الأفاعي والعقارب وإنما خفت أن تموت هذه المساكين إذا هي نهشتك أو لسعتك، فأهني الوطن برجوعك إليه، وأهني القراء باتحافك إياهم بعد اليوم بنتائج رحلتك، وأهني أعداءك بسلامتهم من شر قلمك شهراً كاملاً وقد

سمعتهم يدعون الله في غيابك أن تجعلك الحكومة وزيراً فوق العادة
في أندونيسية حتى يخلصوا من شرك إنه السميع الجيب!

استفتت في هذا الصباح وإذا بالفيحاء تحت الباب فسحبتها
وبادرت إلى قراءتها وسرعان ما اشتد سروري لما أخذت عيني
مقالك: «بعد غياب شهر» ورأيت أسمك الوديع في ذنب المقال، لم
أقرأ مقالك قراءة وإنما التهمته التهاماً لأنني مولع بقراءة الرحلات
وعسى أن تكون رحلتك أنصب من رحلة ابن بطوطة، وإن
كانت العصور قد تغيرت والأفكار قد تبدلت، ولكنني على كل
حال رأيت في مقالك شيئاً طريفاً فاسمح لي بأن أشير إلى هذا
الشيء الطريف الذي أوحى إليّ كتابة هذا الكتاب.

هنيئاً لك هذه الوطنية الهادئة التي ندعو إليها في أدبنا وكتابتنا
وشعرنا، وأعني بها حب المرء وطنه دون شيء من الضوضاء، لقد
احتفظت بمقالك الكريم حتى إذا لا سمح الله دعيت إلى الرثاء في
يوم من الأيام استوحيت المقال فيجيئني الشعر، هنيئاً لك هذا الخلق
الطيب في شغفك بدمشق على الرغم من حمصيتك فأرجو الله أن
يجيب دعوتك وأن يقيها صروف الدهر وأن يجعل فيها عز الشرق
حتى يوم الدين.

ولكن ما هذا وحده الذي استمال قلبي في مقالك لقد استماله
شيء آخر نتهمس به في مجالسنا.

لقد قلت في بعض المقاطع:

«ولكن نهجنا في الحياة يختلف عن نهجهم جميعاً فهل نحن من طينة غير طينة هؤلاء البشر الذين يشكلون ثلاثة أرباع العالم!»

وقلت في مقطع آخر:

«أما نحن فننام ونفوق وإذا بنا أمام عدة زعماء جدد قد نبتوا في الوجود وتقدمو لحمل البنود وحشد الحشود على الطريقة الفريدة، طريقة الوصول إلى الحكم بأي ثمن ومن بعدهم الطوفان!».

هذه هي الروح الجديدة التي تجلت في مقالك، أفرأى الذين غمسوا ألسنتهم فيك بسبب رحلتك الميمونة نتيجة هذه الرحلة إلى بلاد العقارب والأفاعي.

الحمد لله الذين صقل قلمك بعد أكلك من جوز الهند في أندونيسية ونجر طبعك وشحذ فهمك فرأيت مالم يره الناس أورأيت ما يراه عقلاء الناس، إننا يا أخي من طينة غير طينة البشر، إننا نعتقد إننا نحن محور العالم بأجمعه فلا يدور الفلك إلا إذا سمحنا له بالدوران ولا تطلع الشمس إلا إذا أذنا لها في الطلوع، ولا ريب في أن إعتقاد الكمال خير من إعتقاد النقص، ووضع الإنسان نفسه في المحل الرفيع أفضل من وضعه هذه النفس في المحل المنخفض ولكننا جاوزنا كل حد ، ولست أعلم مقدار هذه المعتقدات إذا جددت الأمور جداً وكشرت الشدائد عن أنيابها في اليوم الأسود، إن رجال سياستنا خاضعون لارادات غير إرادتهم، يرون الصواب فيقبلون عليه مسaire لأهواء غير أهوائهم أو إذا أحببنا أن نسمي

الأشياء بأسمائها كما فعلت في مقالك البين قلنا أنهم يخبصون ما يخبصون وصولاً إلى الحكم!.

اسمح لي يا أخي بأن أقول لك إن هذه النتيجة التي رجعت بها بعد رحلتك تفوق في نظري نتائج رحلة ابن بطوطة أو السندباد البحري ولو كنت غنياً لمهدت لك السفر من حين إلى آخر حتى تعود إلى وطنك الذي أحببته حباً ملاً قلبك وروحك بعجائب الحكم وطرائف الآيات وإذا أوحى إليك بلاد العقارب والأفاعي هذه العجائب والطرائف، فلا شك في أن بلاد الأدباب البيض ستوحى إليك عجائب أعجب وطرائف أطرف.

إننا يا أخي من طينة غير طينة البشر، فالحرية مستفيضة في بلادنا إستفاضتها في بلاد الأوامد، والديمقراطية منتشرة في ديارنا إنتشارها في ديار الناس ولكننا نفهم الحرية على شكل خاص يختلف عن كل شكل وندرك الديمقراطية على نحو من الإدراك لا يشبه أي نحو كان، سألتني اذاعتنا من اسبوع سؤالات شتى، من جملتها هذا السؤال: لماذا أزهد في الكتابة فكان جوابي أن الأدب يتطلب قبل كل شيء الحرية فإذا ماتت الحرية مات الأدب في دمشق خمس وعشرون جريدة، اللهم زد وبارك! لكل جريدة رأي خاص في سياسة الأمور والحكم على الناس فإذا ذهب أحدنا إلى روسية ووصف ثلج سييرية قالوا فيه أنه شيوعي، وإذا ذهب إلى أميركة وتغننى بشلالات النياكرا قالوا فيه أنه أميركي، وإذا ذهب

إلى نجد وتمتع من شميم عرارها قالوا فيه أنه سعودي، وإذا ذهب إلى العراق وسرح طرفه في نخيل دجلته وفراته قالوا فيه أنه هاشمي، وإذا قبع في عقر داره وسلم الناس من شره قالوا فيه أنه صاحب ماليخوليا، أفنجد في العالم كله عقلية مثل هذه العقلية أفرايت لماذا أولعت بمقالك واحتفظت بهذا المقال وملأت شعوري من قولك: إننا من طينة غير طنة البشر، لقد فششت خلقي بهذه الحكمة التلاوية، وثق بأنك فششت أخلاق كثير من الناس ولا ريب في أن القراء ينتظرون مقالاتك بشيء من فقدان الصبر لأنهم أصبحوا في حاجة ماسة إلى من يسمي لهم الأشياء بأسمائها، أصبحوا في حاجة إلى من يقول لهم في الشيء الأسود أنه أسود، دون أن يحسب حساباً لشم الشاتمين أو قذف القاذفين فكأن القرائح قد صودرت لأن بعض الناس يحرصون على سمعتهم من أن تثلم وعلى كرامتهم من أن تجرح، فإذا جاء كاتب مثلك وقال الحق غير هيب ولا وجل قدروه حق قدره.

لست أتمنى لك بعد اليوم إلا الاكثار من الرحلات والبعد عن العيون التي ترجع إلينا بالحقائق الناصعة فإنكم معاشر أصحاب الصحف تخالطون الناس وتمازجونهم أكثر من كل واحد إنكم تقفون على مواطن شعورهم وذوقهم وكرهم وإن صناعتكم الشريفة تمهد لكم السبيل إلى الإتصال بهذه المواطن كلها فتستطيعون بفضل هذا الإتصال أن ترققوا الشعور وتصفوا الأذواق

وترشدوا الأفكار إن حالتنا يا أخي أكثر مما وصفت وأشد مما
وصفت ولسنا نعلم ما يصير إليه أمرنا، فهل لك أن تتجرد بعض
التجرد فتكتب لنا دون أن تحسب حساباً لغير الضمير والوجدان
وأظن أن قلبك عامر بهما ودون أن يتسلط على قلمك القوي غير
حب وطنك الخالد.

فهل من رحلة ثانية إلى بلاد أجوج وماجوج. رافقتك
السلامة!..

الفيحاء ١٩٥٥

«اليوم» بعد الاندماج

إذا جعلت اندماج «الأيام» و «الإينشاء» في جريدة واحدة موضوع هذا المقال، فالسبب في ذلك أنني فقدت أسماء ألفتها من زمن غير قريب، لقد كانت هذه الأسماء جزءاً مني، فقد عشت أنا وأصحاب الصحف من أربع وثلاثين سنة، نشرت في صحفهم كثيراً من أفكارى وعواطفى وشركت أصحابها في كثير من أفكارهم وعواطفهم، لقد كانت صلتى بهم أشد من صلتى بالطبقات كلها، عشت معهم ومارستهم ومارسوني وفقدت منهم إخواناً أتاهم الله الشيء الكثير من مهارة الصنعة وحسن البيان وصدق المبدأ، فإذا اهتمت بتغيير أسماء الصحف التي ألفتها من سنين طويلة فلا غرابة في ذلك، على أنى لا أرى في تغيير الأسماء شأنًا كبيراً، فقد يتغير الأسم وتبقى الروح واحدة ويبقى الأسلوب واحداً، وقد تتغير الأسماء، فتتغير الروح ويتغير الأسلوب، الجوهر في هذا كله روح الجريدة وأسلوبها أما الاسم فهو عرض.

لا يحمد الثبات في كل حال من الأحوال وقديماً مارس السياسة «فيكتور هوغو» فغير أفكاره كثيراً وكان لا يرى في ثبات الرجل على فكر واحد مدحاً لهذا الرجل، فإن الرجل يثبت على فكر

واحد مثله في رأيه كمثل الماء الراكد في المستنقعات، فمن شروط الحياة التطور، فالمرء لا يذم إذا غير أفكاره وإنما يذم كل الذم إذا غير وجدانه وضميره في تغيير أفكاره، المهم أن يبقى الوجدان في التطور غير مثلوم والضمير غير مصدوع.

هذا ما كان يقوله «هوغو» في تغيير أفكاره السياسية فلا عبرة في تغيير الأفكار وإنما العبرة في تغيير الوجدان، أصبحت صحافتنا في حاجة ماسة إلى الإصلاح وإذا كان لا يعنيني وصف السبيل إلى هذا الإصلاح فإني أرجو أن يكون الاندماج الأخير تحقيقاً له.

لم أشعر بقوة الصحافة شعوري بها في هذه الأيام، إنني أطلع من حين إلى آخر مجلات مصرية فتقع عيني على صور قصور الملك فاروق فألهو بتحف هذه القصور بفضة أوانيها وذهبها وتمثيلها ونحو ذلك فأقول في نفسي كيف يكون وقع هذه الصور في نفوس ملايين من فلاحي مصر يعيش أكثرهم بقرش مصري في النهار، كيف يكون وقع هذه الصور في نفوس ملايين من الناس أكلهم رغيف خبز ورأس بصل، يمرض الشعب من الجوع ويمرض الملوك والأمراء من التخم ومن شيء أفظع من التخم، ولكن شتان بين هذان النوعان من المرض، وإذا كنت لا أجزئ لنفسي أن تخوض في موضوع مثل هذا الموضوع وإنما أترك حق الكلام عليه لأصحابه، فإني أجزئ لها أن تؤمن بقوة الصحافة وسلطانها، فإن نشر صور مثل الصور التي تنشر في مجلات مصر والتعليق البارع عليها يفعل

في نفوس الفقراء البائسين مالا تفعله الثورات فتشتد نقمة هؤلاء الفقراء ويعظم سخطهم ويتفاقم كرههم للملك وأمراء خرجوا في لذاتهم ونعيمهم عن كل مألوف.

لقد ذكرني سلطان الصحافة في يومنا هذا سلطان صحافتنا في القديم فقد رزق أدبنا من ألف سنة وأكثر مخبراً من أحذق المخبرين يجمع الأخبار من أوثق مصادرها اشتغل في جمع أخباره خمسين سنة حتى اختل عقله في آخر حياته وأصابه الفالج أعني بهذا المخبر أبا الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، تعودنا أن نرى في هذا الكتاب العظيم مادة أدبية تزيد في محاسن ذوقنا وشعورنا وبياننا، ولكني بعد أن توليت تدريسه ثلاث سنين وجدت فيه مادة صحفية أعظم من مواد صحفنا في هذا العصر، لقد دخل أبو الفرج على الخلفاء والوزراء والعمال قصورهم في الليل ففضح أسرارهم وكشف عن لهوهم وتبذيرهم وصور مساوئ حياتهم الخاصة، فولد بهذا كله نقمة في النفوس وسخطاً في القلوب وكرهاً في الصدور، وإذا لم تظن العصور السابقة إلى ما فعله أبو الفرج الأصبهاني فقد فطن إلى ذلك عصرنا هذا.

هذا ما تفعله الصحافة إنها قادرة على أن تظهر الحق وتدحض الباطل والناس لا يطلبون منها أكثر من ذلك، فإذا كنا نتمنى إصلاح صحافتنا بعد الاندماج الحديث فإننا لا نتمنى هذا الإصلاح إلا للوصول إلى إظهار الحق ودحض الباطل وسواء علينا بعد ذلك

أكان أسم الجريدة الأيام أم الإنشاء أم اليوم فالذي نرجو بعد تغيير الأسماء إنما هو فطنة الأساتذة أصحاب الصحف إلى تقديس صنعتهم، وإذا كانوا لا يجدون شأناً عظيماً في تغيير الأسماء فإنهم يجدون هذا الشأن في المحافظة على صدق الأسلوب والوجدان والضمير.

لو كنت وزير الأدب

لهوت من أيام بمطالعة مجلة فرنسية قديمة، قرأت فيها عنواناً غريباً: لو كنت وزير الأدب؛ فاستمالي هذا العنوان إليه وقلت في نفسي: هل بلغ الأدب من أمة مبلغاً حمل رجاله على أن يتصوروا وزارة له، ما أشد التباعد بين أمة ترى الأدب أرفع درجة من درجات العقل البشري، وبين أمة يرى الأدب رجالها أسفل درجة من درجات هذا العقل، ولكن الذي قال لا يعرف الفضل إلا ذووه عالم من علماء النفس، إن الذين يتصورون وزارة للأدب يعلمون فضل الأدب وتأثيره، ويعرفون أن هذا الأدب هو الذي قلب أوضاع بلادهم بفضل كتاب أمثال فولتير ومونتسكيو وروسو وديدرو أما الذين يحتقرون الأدب، ولماذا لا أقول أما الذين يحتقرهم الأدب، فإنهم يريدون أن يتصرفوا في القلوب وهم لا يعرفون مداخل هذه القلوب ومخارجها، إنهم لا يعرفون لغة هذه القلوب.

أرجع إلى العنوان الغريب: لو كنت وزير الأدب، فإن صاحب المجلة التي أشرت إليها كتب إلى طائفة من كبار الأدباء كتاباً سأهم فيه عن العمل الذي يعملونه لو كانوا وزراء الأدب.

لقد جاءتة جوابات شتى طالعت أكثرها قال أحد الأدباء: لا ينتظر الأديب من الأوضاع الإدارية إلا عبوديات جديدة، فأنا لا أوافق على أن يكون للأدب وزارة.

وقال أحدهم: لو كنت وزير الأدب لأعلمت النواب بأن وزارة الأدب لم تنشأ لحشوها بصنائعهم من طلاب الوظائف.

وقال أحدهم: لو كنت وزير الأدب لقلت للأدباء فتشوا لكم عن عمل آخر تعيشون منه، ولأعنتهم وأنا وزير على هذا العمل.

والخلاصة جاءت جوابات شتى بعضها فيه شيء من الهزل والتهمك، وبعضها فيه شيء من الجد.

فها أنا أقف على جواب أعجبنى أكثر من غيره؛ قال صاحب هذا الجواب: لو كنت وزير الأدب، ولكن كن مطمئن البال فإنني لن أصبح وزير الأدب لأنني لم أخلق للسلطة، على أنني لو كنت وزير الأدب لبذلت جهدي قبل كل شيء في جعل حرية الكتاب مقدسة، لأنها أول الخيرات التي يطمحون إليها، ولولاها ما نشأت المؤلفات الكبيرة.

نعم! حرية الكتاب مقدسة، إننا لا نكاد نتصور مقدار اللذة التي يجدها الفكر في شيوعه واستفاضته ولا نكاد نتصور الألم الذي يألمه الفكر من حبسه وضغطه، إنني واحد من الناس أفضل أن يسلبوا مني كل شيء في هذه الحياة على أن يتركوا لي حرية واحدة وهي حرية الفكر، بهذه الحرية وحدها تستطيع أقلام الوطن أن

تؤدب كل ظالم ومستبد، وأن تبين كل غش وكل تدجيل وكل كذب، بهذه الحرية وحدها تستطيع الأقلام أن تمزق هذا اللباس الذي نلبسه، ظاهره إخلاص وباطنه تدجيل، ظاهره تضحية وباطنه أثرة حيوانية، فبحرية الفكر وحدها يستطيع الأدب أن يكشف الغطاء عن أخلاق كاذبة وعن تدجيلات باطنة، وعن أباطيل منمقة وأضاليل مزوقة.

ليأخذوا مني كل شيء وليعطوني حرية الفكر وحدها ليعطوني هذه الحرية وحدها حتى يتبسط الذهن في مداه، ويستفيض الحسن في مجاله، ويمتد الشعور إلى سمائه، والعاطفة إلى أفقها، وحينئذ يعلمون قيمة الأدب، وحينئذ يعلمون أنهم لا شيء في هذا العالم.

حرية الفكر أول الخيرات التي يطمع فيها الكتاب، في أي أفق نشأت أعظم عبقرية في العرب، وأعني بها عبقرية الجاحظ، هل نشأت في أفق ملآن من القهر والضغط؛ كلاثم كلاً؛ إنها لم تنشأ إلا تحت سماء أمكن فيها القول وصلح فيها الدهر، وهبت فيها ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم.

تحت سماء مثل هذه السماء تنشأ العبقرية الخصبة والحياة الواسعة؛ والفكر الوافر والذهن المنطلق، فالذين يضغطون حرية الفكر يقتلون كل عبقرية وكل فكر وكل ذهن، إنهم يشنون الضياء ليشتد الظلام.

ومهما أقل في هذه الحرية المقدسة فإن قولي لا شيء إلى جنب ما

قاله «هوغو» إنه بعد أن نشر كتابه «البائسين» ذهب إلى «بروكسل» فدعاه الذين نشروا له هذا الكتاب إلى طعام حضره أشهر كتّاب الدنيا، فأجاطت به نفوس شريفة وحيته أطيّب التحيات، فرد على تحياتها، ولكن الذين حضروا الطعام يذكرون أن «هوغو» لم يستطع أن يجبس دموعه لما مرت بذهنه فكرة جرح «غاريبالدي» وحبسه في جبال إيطالية، أي فكرة مقاومة الفضيلة والحرية.

خطب «هوغو» خطبة تغنى فيها مجرية الصحافة، وإنني لأعجز عن أن أجد لغة أعبر بها عن فكر «هوغو» في هذه الخطبة، قال في جملة ما قال:

الصحافة إن هي إلا ضياء العالم الإجتماعي ولا يمتد الضياء إلى شيء إلا امتدت إليه العناية.

الفكر إنما هو شيء أكثر من الحق، فالفكر إنما هو نسمة الرجل نفسه فالذي يضع عقبة في سبيل الفكر فكأنه يتصدى ليحجني على الرجل نفسه، فكل تقليل من حرية الصحافة يقابله تقليل من الحضارة فلا تحجز حرية الصحافة إلا استطعت أن تقول أن غذاء النوع البشري يمنع منه.

مهمة عصرنا أن يبدل الأوضاع القديمة في الجماعات، وأن ينشئ النظام الصحيح وأن يقيم الحقائق مقام الأوهام ففي تبديل القواعد الإجتماعية لا شيء يعترض الصحافة.

الصحافة قوة لأنها العقل.

إنها البوق الذي ينبه الشعوب، إنها تعلن بعلو الحق إنها لا تنظر
إلى الليل لتحى الفجر إنها تؤذن بطلوع النهار وتنبه العالم.
على أنهم في بعض الأحوال ينبهونها فتنبيهم هذا يشبه صوت
البوم الذي يوبخ الديك على صياحه.

الأيام ١٩٥٠

ابن الشام

بلعت الشام كل الأمم.. كما تبلع الأرض الماء
وغلبت لغتها العربية على كل اللغات لقوة تركيبها وخصب
مادتها ورخامة نغمها

لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا مسلم بن عقبة المري
والضحاك بن قيس الفهري فقال:

أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل العراق، فإن سألك عزل
عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم، فإن عزل عامل أهون عليك من
سل مائة ألف سيف ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم.

هذه عبارة دونتها في دفثري الخاص من أربعين سنة، ولم تكن
غايتي في تدوينها إلا الاستعانة بها وبأمثالها على تقويم البيان، فما
كنت أفطن إلى ما تنطوي عليه من الأسرار ولا كنت ألتفت إلى ما
في تضاعيفها من الخصائص، وإنما همي في تلك السنين البعيدة
كان تحدي البلغاء في صناعة الترسل والإنشاء حتى ألف أساليبهم
وأمتزج بمناحيهم.

أما اليوم فقد عادت إلى ذهني عبارة معاوية فلم أهتم في ثناياها

بما كنت أهتم به من قبل، عادت هذه العبارة فلم أحفل ببيانها وإنما حفت بما كشفت لي من عوالم مديدة الآفاق، لقد رأيت فيها عالمين مختلفين رأيت فيها رجلاً أحاط بأسرار السياسة أي سياسة الناس، ورأيت فيها شعباً طبعه الله على خصائص، فإذا جهل الرجل هذه الخصائص زلت به قدمه في سياستهم.

عهد معاوية إلى ابنه يزيد أن يلاين أهل العراق ويسايرهم وما عهد عهده هذا إلا لعلمه بطبائع أهل العراق وأخلاقهم وأمزجتهم، وقد نجاه هذا العلم من كثير من المتاعب، فإن عزل عامل من حين إلى آخر خير من فتنة لا يعلم إلا الله وحده عواقبهما، لم يخطئ معاوية في وصيته فإن الذي يعرف العراق يعرف قساوة الطبيعة فيه، اذكر أني في رجوعي من الحجاز ونجد إلى بغداد وذلك من خمس وعشرين سنة، هبت علينا عاصفة على الزبيدية في طريقها إلى الحج، فبت في السيارة وكنت أحسب أن السماء كادت تسقط عليّ بنجومها وصواعقها، كان البرق يخطف بصري وكان دوي العاصفة يهز أعصابي ولما وصلت في اليوم الثاني إلى بغداد وصف لي بعض الأصدقاء شدة العاصفة فقد مات منها على الطرق ما يقرب من مائة شخص، لا ريب في أن قساوة الطبيعة أورثت أهل العراق شدة في شكائهم وعزائمهم وقد كان معاوية يعلم بهذه الشدة فتلافها بالمسايرة والملاينة وهذا منتهى الإحاطة بالعناصر النفسية في سياسة الناس.

سياسة الناس

لا شيء أصعب من سياسة الناس، لأن الرجل عادة مركب من شخصيات شتى لا تظهر إلا في أحوال معينة، وما هذا الثبات الذي نراه في شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير. تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل فالهادئ يصبح ثائراً، والرقيق يصبح قاسياً والفاضل قد تتناثر فضائله، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية فإن جهلهم يؤدي إلى الإخفاق في سياستهم أو إلى الذهاب بحياتهم أو إلى القضاء على بلادهم في بعض الأحيان. لم يكن قصدي من تصدير حديثي بكلام معاوية الإشارة إلى العراق ورجولة أهله وإنما قصدي الرمز إلى طبائع ابن الشام. فما هي خصائص أهل الشام وكيف ينبغي لرجال السياسة أن يعاملوا أصحاب هذه الخصائص.

ميل الشعب إلى حريته

أرجو قبل أن أدخل في الموضوع أن يسمح لي بالإشارة إلى مقال صديق من أصدقائي ذكر فيه بعض مقاطع من محاضرة حاضرت بها في هذا المركز الثقافي ومن قصيدة أنشدتها في حمص ومن كلمة ألقيتها في مهرجان الشعر الأخير وقد استخرج من هذا كله تأثير الأدب في الانقلابات وتمهيده السبيل للثورات ولكنني أريد أن أستخرج نتيجة ثانية قد يكون لها صلة بالحديث الذي أحدث به.

لقد ترددت بعض التردد في الإشارة إلى المواقع الذي وقعته تلك المقاطع من النفوس ولكن الذي يشجيني على هذه الإشارة إعتقادي أن النفوس لم تستحسن ما استحسنته من الأقوال إلا بالقدر الذي أعربت به عن شعورها وحسها، فهي رأت فيها صورة شعورها النبيل وحسها الشريف، فكان مثلها في ذلك كمثل المرأة المليحة التي تنظر في المرأة فإذا أعجبت في نظرتها بشيء فإنما تعجب بملاحظتها قبل كل شيء وما المرأة إلا وسيلة إلى إحساسها بهذه الملاحظة.

ما أصدق ما قاله المتنبي:

إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد.
ولقد صادف ما المعت إليه من الأقوال هوى في فؤاد هذا الشعب فنجحت وما نجحها إلا دليل على ميل الشعب إلى حريته وعلى تأفقه من الظلم والاستبداد وعلى انقضاضه على كل من تحدته نفسه بإخضاعه وإذلاله، إن شعباً هذا يسير من خصائصه، من صفاته وأخلاقه لجدير بأن نعرف شيئاً من روحه ومزاجه فإن معرفة رجال السياسة بهذه الروح وبهذا المزاج توفر عليهم كثيراً من المشكلات وتوفر علينا كثيراً من المصائب.

الجهل بأخلاق الشام

لست أحاول الأستقصاء في معرفة أخلاق الشام وطبائعها فما أنا

بعالم من علماء النفس والإجتماع، وإنما أستعين ببعض تجارب الحاضر وبما اقتبسته من بعض حوادث التاريخ فقد دلني هذا الأقتباس وهذه الاستعانة على أن الذين زلت به أقدامهم في سياسة أهل الشام إنما هم الذين خفيت عنهم أخلاق الشام وطبائعها وأمزجتها فوردوا موارد لم يهتدوا على الصدور عنها وذهبوا مذاهب طاشت فيها عقولهم وضلت فيها أفهامهم فكان من عواقب هذا الطيش وهذا الضلال مصائب توالى على أهل الشام في متناول الأحقاب.

بلع الشام للأمم التي غزتها

لست أعلم في هذا القليل الذي درسته من تاريخ الشام شعباً يشبه شعب الشام فلا أحاول الإزعاج بشيء من طول التاريخ وإنما أكتفي بالإشارة إلى بعض الأمم التي بسطت سلطانها على ديار الشام وإلى بعض اللغات التي تعاقبت عليها ومن هذه الإشارة الخفيفة تبين لنا غرابة هذا الشعب في مراسه وغرابة لغته في قوة بنيانها.

أي بقعة من بقاع الأرض مر عليها ما مر على الشام من الأمم لقد مر عليها الآشوريون والبابليون والكلدانيون والكنعانيون والفينيقيون واليونان والصليبيون والتتر والترك وغيرهم وغيرهم، ولكن ما فعل الله بتلك الأمم، ما فعل الله ببقاياهم في الشام، لقد

اشتملت الأرض عليهم فبلعتهم كما تبلع الماء، وأقلعوا كما تقلع السماء واستوت الشام على جبالها وسهولها، فأين الرومان الذين حكموها ما يقرب من ثلاثة قرون؟! أين ما وقع في تلك العصور البعيدة من نزاع وشقاق واستبداد وحروب ومظالم ومطامع وويلات ونكبات.

وكما مرت على الشام أمم كثيرة غزتها وحكمتها ثم تقلص ظلها عن أهل الشام وبقي أهل البلاد وحدهم يتمتعون من هوائها وشمسها، ويسرحون في جبالها وسهولها، فكذلك مرت عليها لغات كثيرة منها الآرامية والسريانية والعبرانية والفينيقية واللاتينية واليونانية وغيرها وغيرها فصارعت العربية هذه اللغات كلها وغلبت عليها بفضل ما جباها الله من قوة التركيب وخصب المادة، ورخامة النغم.

ولا بأس بأن نضيف، أن كل ما تقدم ذكره ما نشأ في الشام من مختلف الأديان، أديان اليهود والنصارى والمسلمين ومن مختلف النحل والمذاهب.

لم أرم في كل ما سلف ذكره إلا إلى أمر واحد لقد حاولت أن أبين أن للشام وجهاً خاصاً. فقد ورثت صفات كثيرة من الأمم التي تعاقبت عليها فتمازجت هذه الصفات وتلاحمت على تراخي السنين حتى أصبح للشام طبيعة خاصة استطعنا أن نعرف أسرارها في السنين القريبة التي أتت علينا.

لين الشام وشدتها

ليس من الضروري أن نستقصي في معرفة هذه الأسرار. فحسبنا الإشارة إلى خصائص الشام في أخلاق نظنها متناقضة. وليس فيها شيء من هذا التناقض. لقد جمعت بين اللين والشدّة في وقت واحد. وعلى قدر ما نرى من دماثتها في ملاينة من مر عليها من الأمم والفاحين، نرى من شدتها في الثورة عليهم والوثوب بهم.

ولكل من هذه الدماثة وهذه الشدّة أسباب إنها تلاين الفاتحين على قدر ما تسمح به الملاينة إتقاءً لشرهم في أول الأمر أو توقعاً لما قد يمكن أن يتم على أيديهم من الخير ثم تنكشف لهم نياتهم الخبيثة فيثورون عليهم ويثبون بهم. لقد أورثتهم صلّتهم بالغزاة والفاحين نعومة في ظاهرهم وخشونة في باطنهم.

فهم يلبسون لكل حال ما يناسبها من اللبوس وهذا دليل على استعدادهم للحياة فليس في طبائعهم شيء من اليبوسة والجفاف. إنهم يباشرون في أوقات المياسرة ويعاسرون في فرص المعاسرة وهذا برهان على فرط حكمتهم.

تصيب الشام مصائب فتخفت أصواتها في بدء الأمر وتسكن حركاتها وتلبد عزائمها، حتى يظنها الإنسان قد ماتت وحتى يكاد يقطع أمله منها. وإنها لفي مثل هذا الخفوت وهذا السكون وهذا اللبود إذ تثور ولا ثورة البركان، وتهب ولا هبوب العاصف

وتسوج ولا موج الخضم. وويل يومئذ للذي يقف في وجهها، لقد علمتها الأحقاب التي توالى عليها ما لم تعلم. علمتها الصبر على الشدائد كما علمتها الثورة على هذه الشدائد، ولا أنسى في هذا المقام كلمة سمعتها في قصر الملك عبد العزيز بن سعود وكنا ضيوفه في مكة. قال لنا رحمه الله: علمتمونا أهل الشام غرس الزيتون. وهو يريد بهذه اللغة الشفوية الصبر على الويلات لأن الزيتون من الشجر الذي لا يثمر إلا بعد سنين فهو لا يشبه غيره من الشجر فأهل الشام يصبرون في النكبات والويلات ولكن لصبرهم حداً يقفون عنده.

مناعة دمشق

وإذا اقتصرنا في حديثنا عن الشام على مدينة دمشق فخرجنا من التعميم إلى التخصيص فما ذلك إلا لأن دمشق كانت في أغلب عصورها تمثل الشام كلها إنها لم تعش في أكثر العصور التي مرت عليها عيشة راضية. فقد تقلبت عليها فتن واضطرابات في أكثر أزمانها، والذي يرجع إلى تاريخها القديم والحديث ويقلب النظر في هذا التاريخ يعجب من بقاء دمشق حتى اليوم بعد المصائب التي أصابتها والشدائد التي توالى عليها، ولا ريب في أن بقاءها هذا إنما مرجعها إلى مناعتها التي لم تستطع الأحقاب أن تزلزها وقد لفتت هذه المناعة نظر طائفة من كتاب الغرب فنوهوا في كتاباتهم

فلم يغيب عن - لوتي - ماضي دمشق فقد شهد أنها عرفت المجد على اختلاف روعاته ومرت عليها المخاوف على تباين أنواعها. نزلها أعظم الفاتحين ففتنتهم بيهجتها. كم هُدمت وكم أُعيد بناؤها على نماذج فخمة من نماذج الماضي حتى سميت في الحديث لؤلؤة الشرق وملكته وسميت في القديم. جنة الدنيا.

انتقلت من سلطان البيزنطيين إلى سلطان العرب فأنست ببني أمية وبني العباس وخربها التتر وأحرقها - تيمورلنك - ثم بعثت بعد هذه الأحداث كلها بفضل مائها الذي لا ينضب، وواحتها التي لا تنقطع خضرتها.

لست أحتاج إلى الإسهاب في الفتن والاضطرابات التي شهدتها دمشق فإن بطون التاريخ قد ملئت بهذه الفتن وهذه الاضطرابات إلا أنني لا أرى مندوحة لي عن ذكر أنماط منها أستدل بها على مناعة ابن الشام وعلى استعدادة للثورة على كل من تحدّثه نفسه بظلمه وعسفه واستصفاء ماله وإذلال عشيرته، وهذه المناعة خاصة من خصائص أهل الشام فكما عرفوا باللين في أخلاقهم فقد عرفوا بالشدة في هذه الأخلاق.

انتقاض الشام على الظلم والمصادرة

ولقد كان لهذه الشدة مظاهر شتى. مرة كان أبناء الشام ينقضون على الظلم والاعتساف فقد ذكر صاحب خطط الشام -

إن أهل دمشق وثبوا في سنة ٢٤٠ بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه وعسفه فيهم وقتله جماعة من أشرفهم ورؤسائهم فقتلوه على باب الخضراء قال ابن عساكر: إن سالماً كان سيئ السيرة. أذل قوماً من دمشق كان بينه وبينهم طائلة ودماء في أول دولة بني العباس وآخر دولة بني أمية...

فقتلوه على باب الخضراء وقتلوا من قدروا عليه من رجاله وسلطوا الموالي على رجالهم وأموالهم فسلبوها.

غضب المتوكل لمقتل عامله وقال:

مَنْ لدمشق... وليكن في صولة الحجاج. فقيل له: أفريدون التركي. فأمره وجهزه إليها في سبعة آلاف وأحل له القتل والنهب ثلاثة أيام فنزل بيت لها قرب دومة فبات بها فلما أصبح قال: يا دمشق ايش يحل بك اليوم مني. فقدمت له بغلة وهم ليركبها فلما وضع رجله في الركاب ضربه بالزوج في صدره. فسقط ميتاً.

وكما كان أبناء الشام يثورون على من يفكر في ظلمهم وعسفه كذلك كانوا يثورون على من يطمع في أموالهم.

كلنا نعلم أن لسيف الدولة فضلاً عظيماً في تاريخ الشام خاصة والعرب عامة، فقد رد الروم عن هذه البلاد ووقف في وجههم سنين طويلة وهو لا يملك من الشام إلا بقعة من بقاعها، أهمها الجزيرة، وحلب وحمص وإنطاكية، ومهما نقل في فضل سيف

الدولة فلا نستطيع أن نوفيه حقه أكثر مما وفاه إياه المتنبى فإن
تصويره لبطلته ومعاركه يكاد يكون أثراً ناطقاً.

أراد سيف الدولة أن يستولي على دمشق وقد كانت دمشق وما
وراءها بيد الأخشيدية أصحاب مصر، فسار إلى حمص فلقى
الأخشيدية فيها فهزمهم سيف الدولة، فانحدروا إلى دمشق.
فلحقهم. ثم خرجوا منها يريدون مصر.

أقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها وجعل يطالب أهلها
بودائع الأخشيدية وربما طمع في ضم الشام إلى الجزيرة ثم في
الاستيلاء على مصر، كل هذا لا بأس به، ملك عربي، رد الروم
عن ربوع الشام، إنما الخطأ الذي وقع فيه بعد ذلك أنه كان يتنزه
في يوم من الأيام هو والشريف العقيقي في غوطة دمشق فلما
وقعت عينه على هذه الغوطة وعلى شجرها الملتف امتدت إلى
أخذها من أهلها وقد كانت عليه نفقات تثقل الظهر، لفرط كرمه
من جهة، ومحاربة الروم من جهة ثانية فقال وهو في أفياء الغوطة
بين هديل عنادها وحفيف ورقها وثغاء غنمها: لا تصلح هذه
الغوطة إلا لرجل واحد، معنى هذا أنه طمع في استصفائها حتى
ينتفع بغلاتها فيسد قسماً من نفقاته فقال له العقيقي: هي لأقوام
كثيرة، وعلم أهل دمشق بطمع سيف الدولة فيها، فكاتبوا
الأخشيدية ليستعينوا بهم على سيف الدولة ولينقذوهم من طمعه

فجاءهم كافور وابن الأخشيد ووقعت الحرب بين الجيشين وكان النصر لعسكر الأخشيد فارتد سيف الدولة عن دمشق وسلمت الغوطة لأهلها.

إننا لا نشك في أن أهل دمشق لو لم يتطاول سيف الدولة لأخذ الغوطة من أصحابها ولو لم يلجأ إلى المصادرات لأعانوه على الأخشيدية ولامتد حكمه إلى دمشق وإلى ما وراء دمشق ولكن طمعه في أموالهم هاجهم فوقع بين عدوين، عدو أمامه وهم أصحاب مصر وعدو خلفه وهم أهل دمشق فلم يجد بدأ من الانسحاب والرجوع إلى حلب.

وهكذا نجد أن غلظته الصغيرة حرمته ملكاً كبيراً.

ومن قبيل انتفاض ابن الشام على الظلم مهما يكن أنواعه وأشكاله ما وقع في دمشق في أيام الفاطميين، إنهم لما فارقوا دمشق إلى فلسطين قدم عاملهم على أهلها رجلاً اسمه قسام الحارثي من الأبطال المعروفين وقيل من أرباب الدعارة العيارين، وقد دون هذا الحادث صاحب خطط الشام: (كان أصل قسام من قرية تلفيتا في سنير يعتاش بنقل التراب على الحمير وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع وغلب على دمشق وما إليها من الأصقاع بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر ولا نهى ودام ذلك سنين وكان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربي قد عاد إلى البلد والياً عليها للعزیز فلم يتم له مع قسام أمر وامتدت أيدي أصحاب

أبي محمود بالعبث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا ونزح أهل القرى عنها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة فألقى عسكره النار من ناحية باب الفرديس فأحرقوا تلك الناحية وكانت فيها أجمل قصور دمشق وحرقت كثير من أحياء البلد وهلك فيه جماعة ومالاً يعد من الأثاث والأموال ثم صالحوا القائد أبا محمود، ثم انتقضوا).

نكاد لا نجد فرقاً بين تاريخ ابن الشام في القديم وتاريخه في الحديث، يطمع في بلاده من يطمع، وينهب أمواله من ينهب ويحرق قصوره من يحرق، فيصبر على مثل هذا الظلم ما قدر على الصبر ويتماوت ما قدر على التماوت ولكن نتيجة هذا الصبر وهذا التماوت إنما هو الإنتقاض، هذه خاصية من خصائص ابن الشام.

ولو ذهبت إلى الإكثار من الاستشهادات لامتد بي مجال الكلام فاكتفيت بذكر نماذج منها فإنني لم أقلب صفحة من تاريخ الشام إلا وجدت بعدها فتنة واضطراباً، ووجدت السبب في هذه الفتنة وهذا الاضطراب ظلماً أو مصادرة، ووجدت عاقبة هذا الظلم وهذه المصادرة ثورة أو وثوباً، هذا هو تاريخ الشام في قديمه وهذا هو تاريخها في حديثه.

تاريخ العثمانيين في الشام

ولو تتبعنا تاريخ العثمانيين في هذه البلاد لوجدنا أن هذا التاريخ ملآن من الثورات والاستعباد والاستبداد، ثورات الأهلين واستعباد الولاة لهؤلاء الأهلين واستبداد الحكام بأمر الحكيم، أضف إلى هذا كله ما كان يصحب هذا الاستعباد وهذا الاستبداد من نهب وسلب وظلم، فكان معظم الولاة كان همهم جمع المال من أقبح الوجوه لا يباليون بظلم مَنْ يظلمون في جباية الأموال، وإذا ضاقت الحال بأحد العقلاء على نحو ما جاء في خطط الشام (فرجع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرفوا دعوته على ولاية الأمر في الأستانة ولبسوا على العامة في أمره حتى يسكتوا نأتمته ويزيفوا دعوته وإلا فلا يعقل أن يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة في الإدارة فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ومهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق ولو كان في المهاجرة حتفهم أحياناً).

وقد نجد في بعض المخطوطات مثل مخطوط الباشات والقضاة غرائب من طراز الحكم في أيام العثمانيين فكان الوالي إذا غضب على ناحية يبعث إليها جنداً ليأمرهم بتحطيم أشجارها كما فعل والي دمشق سنة ١١٠٨ وقطع توت حاصيبا فقد كانت الدولة تعهد ولاية البلاد إلى ولاية يدفعون إليها الخراج المقرر ويجبون

لأنفسهم أضعافه فكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال.
وإذا أحببنا أن نلخص تاريخ تلك العصور لخصناه في كلمات:
تاريخ نفي وسجن ومصادرة وقتل، تاريخ ظلمات بعضها في
بعض، ظلمات في كل ناحية من نواحي الحياة.

ثورة الشام على العثمانيين والفرنسيين

إذا كنت قد تبسطت في الإشارة إلى هذا التاريخ فما توخيت في
هذا التبسط إلا الوصول إلى النتيجة التي تدلنا على أخلاق ابن
الشام لقد صبر أهل هذه البلاد على كل ما مر بهم من المصائب
التي ألمت إليها ولقد دام صبرهم سنين طويلة وعصوراً مديدة
ولكنهم لم يصبروا إلا ليثوروا ويثبوا فلما أمكنتهم مناhez الفرص
ثاروا ووثبوا ولقد اختمر في أذهانهم هذا الوثوب وهذه الثورة
أحقاباً طويلة حتى جاء الوقت المناسب فلما أعلن الملك حسين
نصر الله عظامه، ثورته على الترك في خلال الحرب الكبرى الأولى
انضم إليها فريق من أبناء الشام وما كان انضمامهم إلا إعراباً عن
تأففهم من ظلم العثمانيين الذي طال قروناً مديدة، وعن ضجرهم
من استبدادهم واستعبادهم ونهبهم وسلبهم ومصادراتهم وهذا
دليل على أن أهل الشام إذا ناموا عن الضيم فلا بد لهم من أن
يهبوا بعد هذا النوم.

تناقض رجال السياسة

لقد كنت أستطيع الإستغناء عن الإستشهاد بالماضي فإن الحاضر حافل بحوادث من هذا الشكل، ولقد عشت في هذا الحاضر من أربعين سنة أدون في ذهني ما أمر به من الأحداث ولست أذهب إلى الإنقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وإنما أذهب إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى أي إلى انسحاب الترك من هذه البلاد ودخول العرب. من ذلك الحين كانت تحدث حوادث يجد بعض المفكرين فيها تلون أهل الشام وأجد فيها حقيقة فضيلتهم.

قالت لي مرة آنسة مصرية تعالج الصحافة: أفلا ترى استقبال الشام لجمال عبد الناصر، أفلا تجد دليلاً في هذه الحفاوة البالغة على منزلته في القلوب وعلى محبة الناس له، قلت لها: هل تعرفين أهل الشام إنهم إذا إعتقدوا في رجل من الرجال صلاح السيرة واستقامة المذهب استقبلوه في هزيز مواكبهم فهذا الإستقبال لم يكن خاصاً بعبد الناصر وإنما هو خاص بالفكرة التي أفصح عنها عبد الناصر، فأهل الشام يضعون ثقتهم برجل من الرجال فيعظمونه أشد تعظيم ويكرمونه أبعده تكريم ثم يقدسونه تقديساً لا غاية بعده وقد يتفق بعد هذا التعظيم والتكريم والتقديس أن ينقلبوا عليه أسوأ منقلب وليس السر في ذلك تلون أهل الشام وإنما السر في ذلك تلون الرجل الذي عقدوا الآمال عليه فخيبتهم.

مرت على هذه البلاد وزارات ورياسات كثيرة، كان الناس في أولها يهئون أصحابها زرافات ووحداناً وربما سعت دمشق إليهم بأجمعها ووفد الناس عليهم من بقاع الشام كلها للغاية نفسها فإذا أتى على هذه الوزارات والرياسات حين من الدهر انقلب الناس على أهلها وغمسوا ألسنتهم فيهم ونبهوا على أضيالهم واستفزوا القوم للخروج عليهم والسبب في ذلك أن أولئك الوزراء والرؤساء دخلوا وزاراتهم ورياساتهم ببرامج براقية وبيانات مشرقة ومواعيد خلاصة فلما تبجحوا في كراسيهم وخلا الجو لهم أنقطعت الصلة بينهم وبين الناس وإذا ببرامجهم كالهباء المنثور وإذا ببياناتهم كالطبول الفارغة وإذا بمواعيدهم كالسراب الخادع فالإنقلاب لا يكون على أشخاصهم وإنما يكون على مبادئهم ومذاهبهم وسيرتهم إن أصحاب هذه الوزارات والرياسات يجهلون السياسة النفسية وجعلهم هذا هو الذي يزل أقدامهم ويطيح كراماتهم ويدحرج كراسيهم.

وإذا كان أبناء الشام يعاملون أصحاب الحكم الذين هم منهم على هذا الشكل فأجدر بهم أن تكون معاملتهم للأجانب الذين غضبهم بلادهم أشد وأقسى وما ننسى معاملة الأهلين للفرنسيين وللذين جاروهم في سياستهم فقد أقام الفرنسيون بهذه البلاد من منتصف سنة ١٩٢٠ إلى أوائل سنة ١٩٤٧ فما فترت عزائم الناس ولا خفتت شكائهم، فكانوا يخرجون من احتجاج إلى احتجاج

ومن مظاهرة إلى مظاهرة ومن ثورة إلى ثورة فلا أهل الشام إستراحوا ولا الفرنسيون وجدوا مثل هذه الراحة والسبب في ذلك كله واضح فقد دخلوا البلاد بحجة من الحجج، دخلوها بشكل جديد من أشكال السياسة وهو الإنتداب ثم طبقوا فيها شكلاً آخر وهو الإستعمار فجهلوا نفسية الشعب وخفيت عنهم بوطن أخلاقه وأمزجته فأدى بهم هذا الجهل إلى الجلاء عن الشام كما جلوا من قبل عن كندا والهند ومصر وشمال أفريقيا.

أسباب نقض الوحدة

وقد يجدر بي أن أنهى حديثي بالإستشهاد بما تم في السنين الأخيرة: أي في سني الوحدة لنرى في إنقلاب ابن الشام على هذه الوحدة صفة من صفاته:

كانت الوحدة حلماً من أحلام العين ومنية من منى القلب ولكن لم يفاجئنا هذا الحلم مفاجأة ولا باغتتنا هذه المنية مباغتة فقد كانت وحدثنا بنت الثورة. ثورة الفكر والشعور من ماضٍ بعيد ومن حاضر قريب. لم يثر رجالنا في حاضرهم وماضيهم إلا لينقلوا البلاد من شتات إلى وحدة، ومن عبودية إلى حرية ومن إحتلال إلى إستقلال.

فإذا كان هم أصحاب الفكر منا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين أفلم يكن همهم في ثمرات خواطرهم ونتائج قرائحهم

الحض على هذه الوحدة وعلى هذه الحرية وعلى هذا الإستقلال.
فما ينبغي للثورات أن تكون حقائق فلسفتها إلا نقل المجتمع من
نظام فاسد إلى نظام صالح. من مذهب معوج إلى مذهب مستقيم.
أما الذين انحرفوا في التاريخ عن هذه الحقائق ولم يروا من وراء
الثورات إلا نقل الناس من ظلم إلى ظلم ومن إستتار إلى إستتار
ومن أوثان إلى أوثان فقد كذبوا على الله وعلى أنفسهم وعلى
الناس. أما الله فقد كشف عن نياتهم ففضحهم وأما أنفسهم فقد
كانت ميتة لا تحس بتأنيب وتقريع وأما الناس فقد تربصوا الدوائر
بهم حتى أنزلوا غضبهم عليهم.

ليس همي في هذا الحديث الكلام على الوحدة وإنما اتخذت
هذه الوحدة سبيلاً إلى الكشف عن أخلاق ابن الشام. إنا لا نزال
نذكر قيام الشام وقعودها في أول وحدة مصر والشام فكان ما
تناثر من الخطب والمقالات والقصائد لا يزال يملأ أذهاننا وكان ما
طبق أعنان السماء من أغاريد وأهازيج لا يزال يملأ آذاننا وأظن أن
القلم يعجز عن إحياء هذه الغبطة التي عمت بلاد الشام في أول
الوحدة فالناس كلهم قد استبشروا بها ورأوها مقدمة لوحدة
العرب كلهم عليهم يستطيعون أن يقفزوا في وجوه من يطمع في
الإستيلاء على وطنهم أو إخراج من غضبهم جزءاً من هذا الوطن
والخلاصة كانت الوحدة آمال سنين طويلة طالما تغنى بها الشعراء
والكتاب والمفكرون فلماذا نقض أهل الشام ما أبرموه من ثلاث

سنين لماذا يئسوا اليوم مما أملوه أمس. هل في هذا اليأس وهذا النقض ما يدل على تلونهم ومللهم.

إنني لا أرى في هذا كله ما يدل على التلون والملل وما أظن بي حاجة إلى تكرار ما قيل في أسباب النقض واليأس فقد أشبع رجال الجيش والسياسة والإختصاص القول في هذا الموضوع وأتوا بالبراهين الساطعة على صحة ما عزموا عليه من نقض الوحدة وقد رأى الدكتور أبو غنيمة أن وزير الثقافة والإرشاد القومي الدكتور عزة النص كان أفصح من تكلم في هذا الشأن لما قال في بعض بياناته وخطبه: إننا آمننا بالوحدة رسالة وآمن إخواننا في مصر بها سياسة.

ما أعظم الفرق بين فكرة تكون رسالة، وفكرة تكون سياسة، أما هذه الرسالة فقد عرفنا قدسها ولكنها لما انقلبت إلى سياسة ضاع هذا القدس لأن صاحب هذه السياسة قد عمل كل ما من شأنه القضاء على الوحدة، مالت البلاد إلى الوحدة لتكون لها هذه الوحدة قوة تقاوم بها من يحيط بها من العدو في أطرافها، فكانت ضعفاً في كل شيء، ضعفاً في جيشها، ضعفاً في ثروتها، ضعفاً في تربيتها وثقافتها، مالت البلاد إلى الوحدة لتكون ألفة فكانت تشتتاً، لقد شتتت في البلاد بين الطبقات فأوغرت صدور بعضها على بعض ولقد عاشت البلاد سنين طويلة ما عرف في خلالها أنه

وقع نزاع بين طبقة وطبقة فكان الفلاح وصاحب الأرض على أتم ألفة وكان العامل وصاحب العمل على أكمل إنسجام، مالت البلاد إلى الوحدة لتستمر في حياة دستورية تنعم فيها بحرياتها على إختلافها، حرية الرأي والإجتماع والصحافة فكانت الوحدة تقييداً لكل هذه الحريات وما عرف مثل هذا التقييد حتى في أيام الإنتداب الفرنسي مالت البلاد إلى الوحدة لتسلم من حكم الطغاة فكانت الوحدة عنوان أكبر طغيان عرفته البلاد في عصرها الحديث، طغيان في الإستبداد بالحكم ولا وزن لوزير أو نائب أو رأي عام، طغيان في التبذير في كثير من الجنون، والفلاحون في مصر حفاة عراة، طغيان في الغرور وما وقع في مثل هذا الغرور من ثارت مصر عليهم من الملوك، طغيان في أباطيل الدعوة الفارغة وأضاليل التهويش، وما تم على أيدي هذا الطغيان شيء يذكر حتى اليوم فإن ما صحب حوادث بورسعيد من التطبيل والتزمير قد يكشف عنه غداً رجال التاريخ فيوضحون ما كان لأهل الشام خاصة وللعرب عامة من الفضل في تأييد مصر..

سيداتي ! سادتي!

لقد أعدت عليكم في حديثي هذا ما أخذته منكم، أخذت منكم صورة أخلاق الشام القوية فأعدتها عليكم في بياني الضعيف.

هذا هو ابن الشام..

هذه هي الشام

يهدأ الماء على أنهارها
لا يغرنك نسيم خلفه
أعصر تمضي وتأتي أعصر
أين غارات العدى في ظلها
فإذا حس بضميم زمهرا
عاصف ما هب إلا عفرا
وجبال الشام تطوي الأعصرا
مضت النارات ريحاً صرصرا
طوت الروم على أنجادهما
وطوت تحت تراها قيصرا



محاضرة في المركز الثقافي العربي

دمشق ١٩٦١